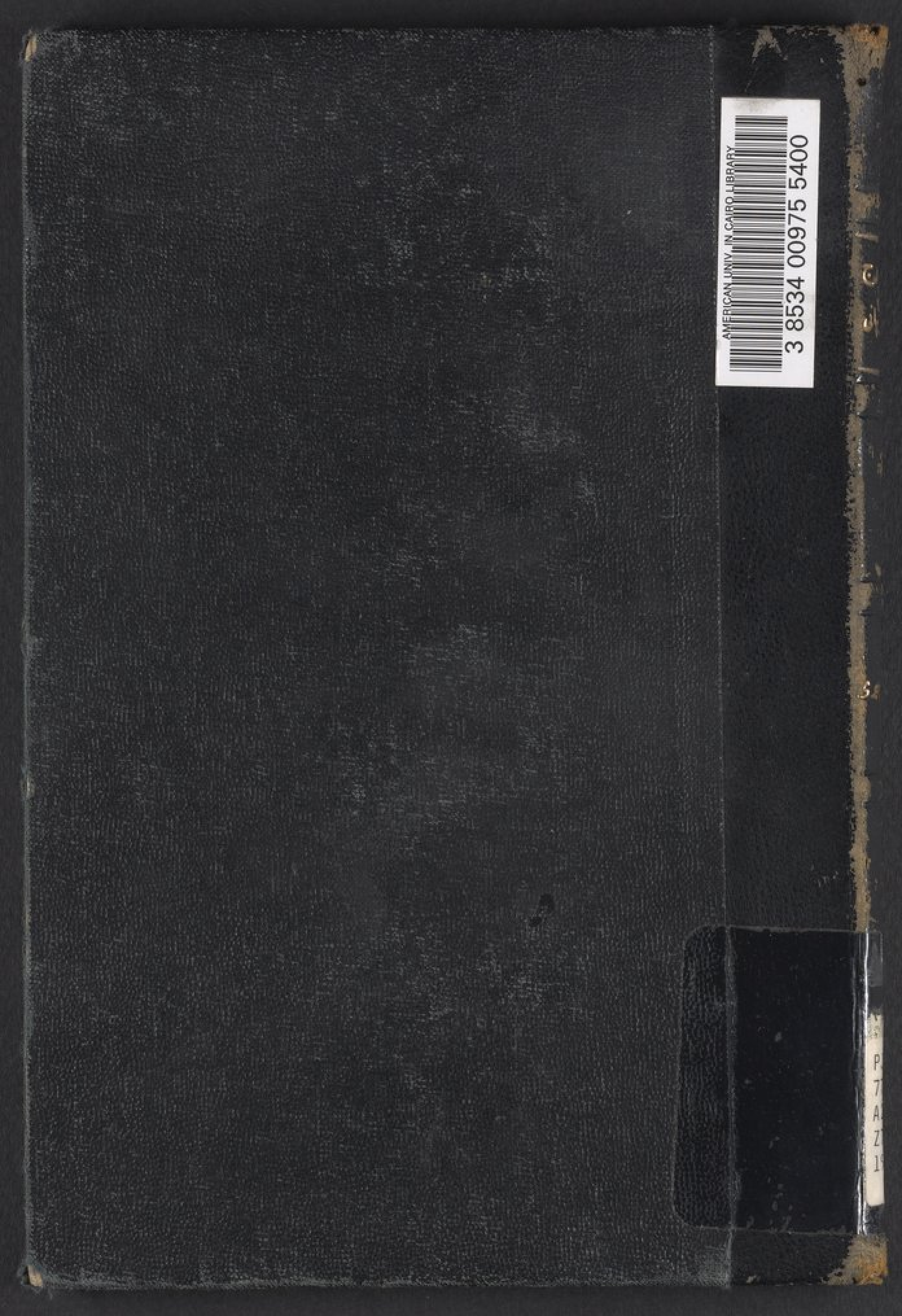
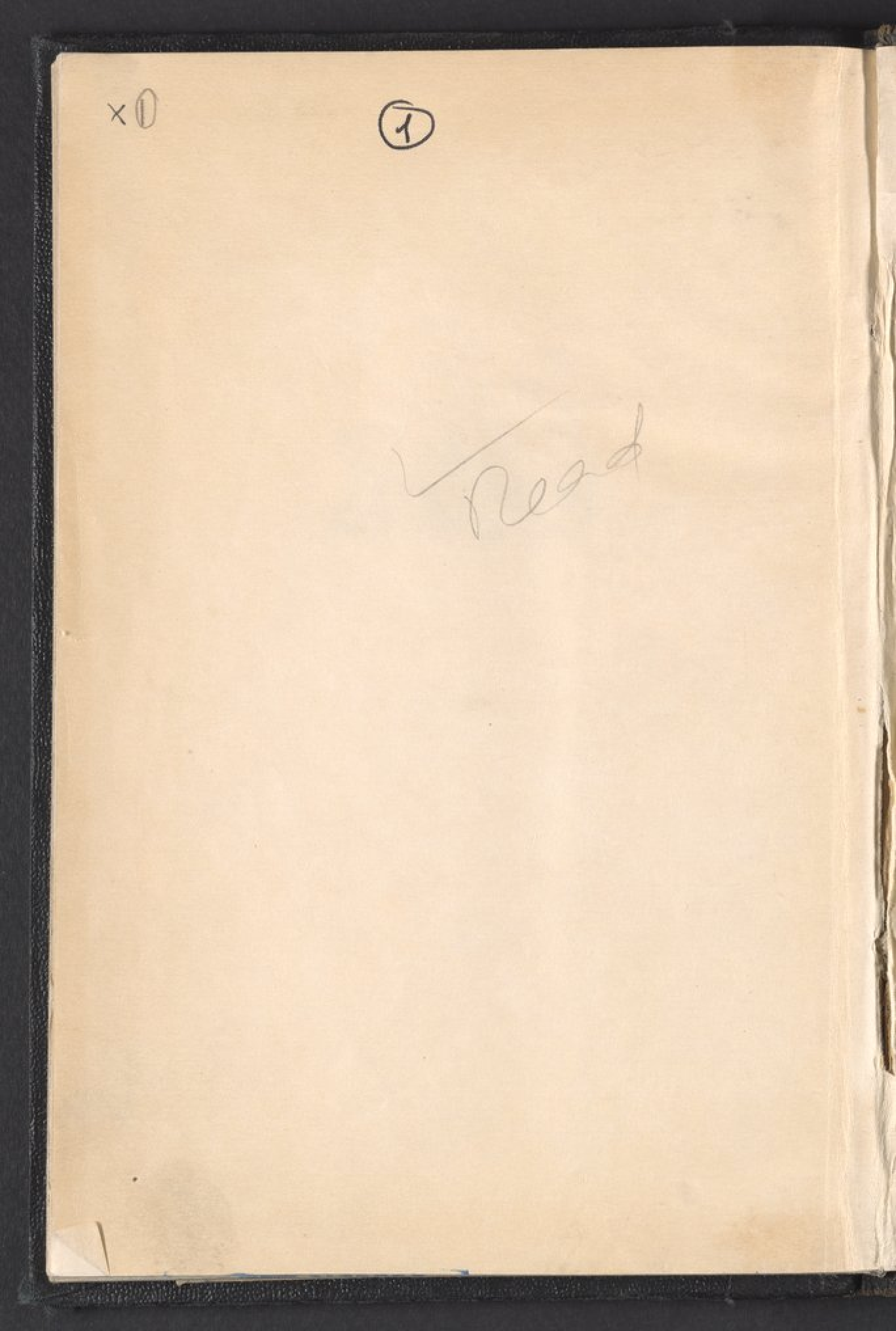
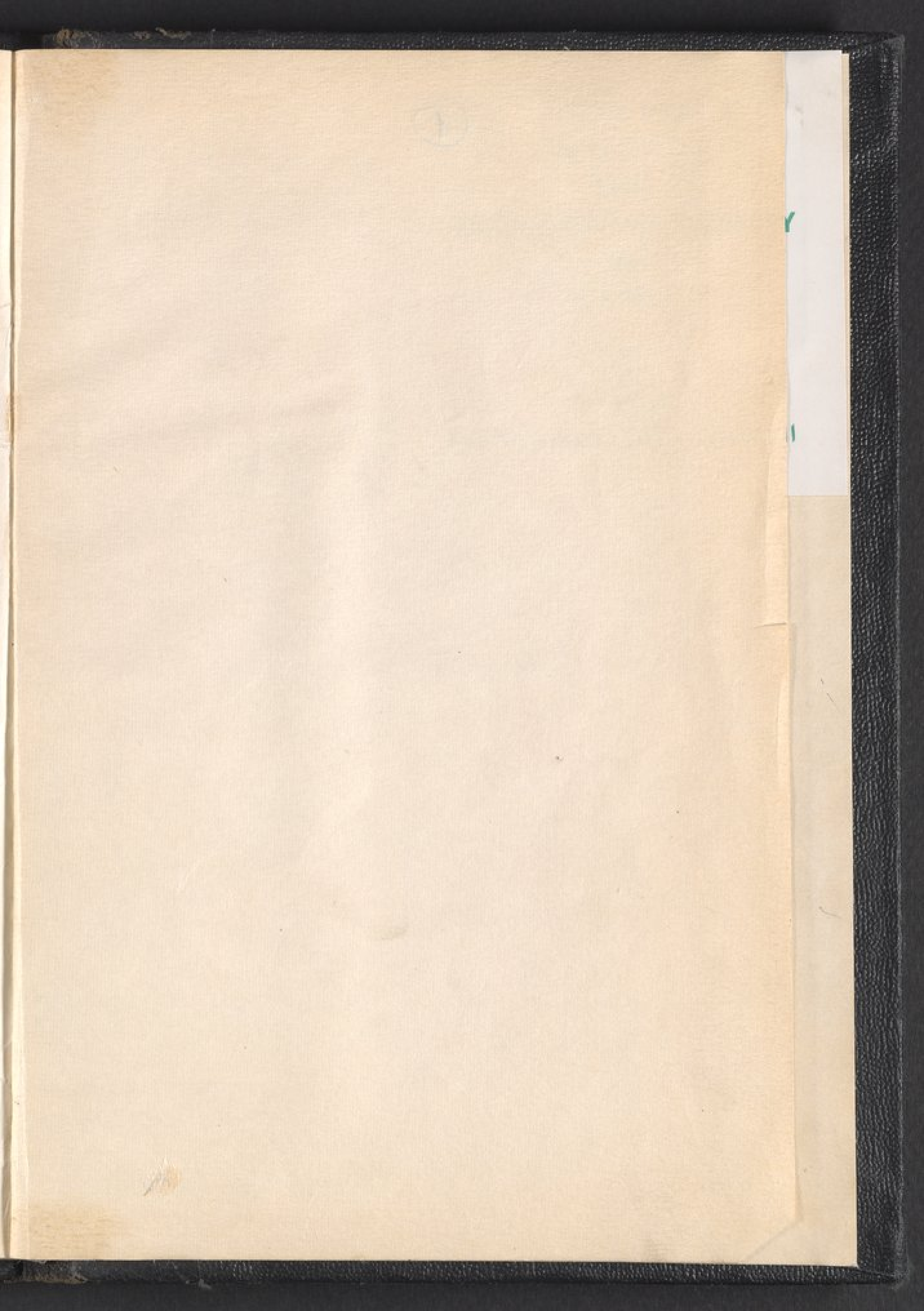
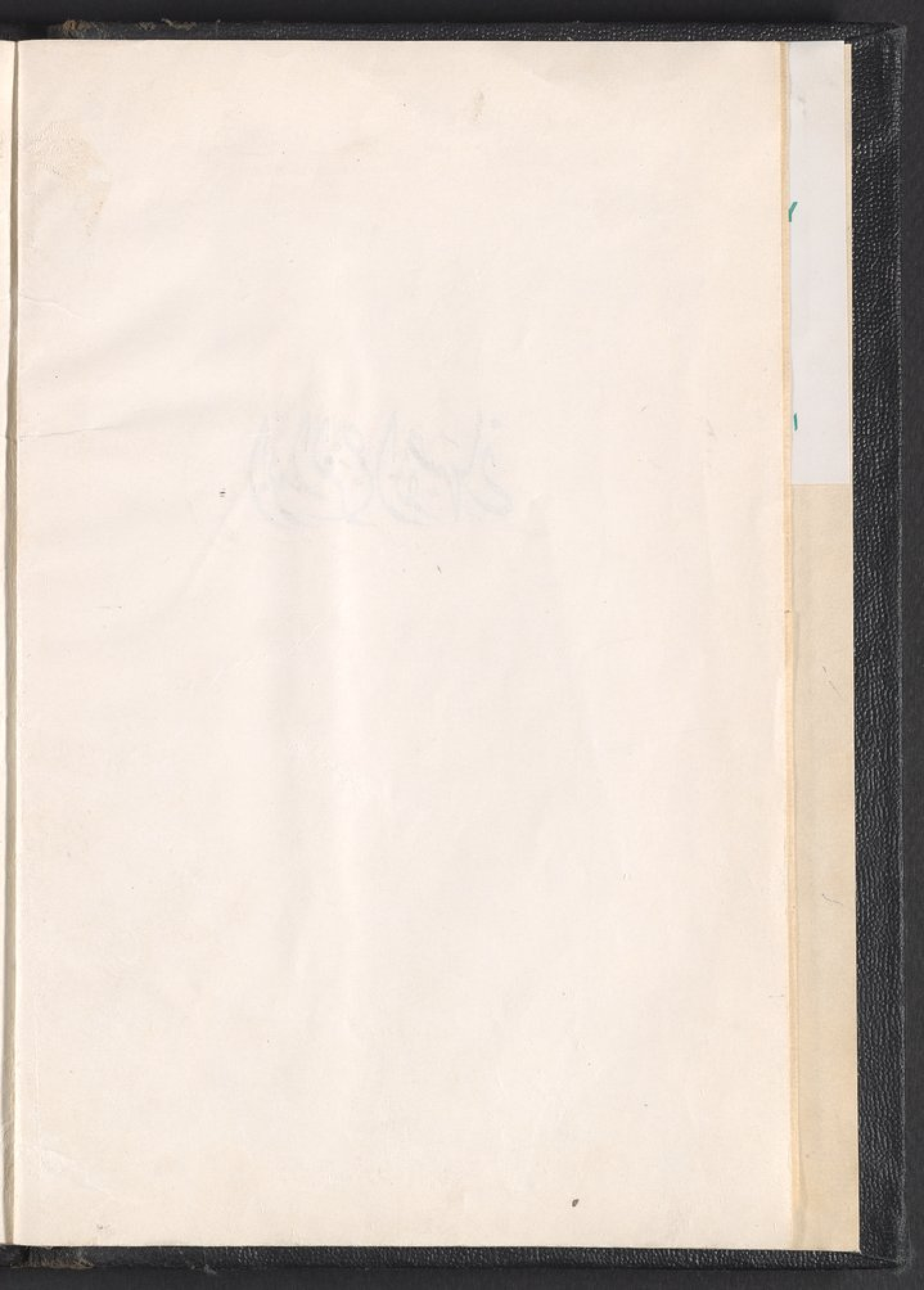

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00975 5400


FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO
من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة





أبو الفرج الأصبهاني



نوابغ الفكر العربي

١٠



بقلم شفيق جبري

كان من عصره السمع والبصر، روى
وصوّر وألف ، وكتابه « الأغانى »
وحده يعدل مكتبة بأجمعهـا !



دار المعارف ببيروت

الفصل الأول

عصر أبى الفرج الأصبهانى

١ — الحالة الاجتماعية والفكرية

أشرف أبو الفرج الأصبهانى على عصرين: العصر الثالث والعصر الرابع. لم يقض فى القرن الثالث إلا نضارة صباه، فقد سلخ فيه من عمره ست عشرة سنة، ولكنه قضى فى القرن الرابع شبابه واكتهاله وشيخوخته، وقضى هذا كله فى بغداد؛ وبغداد يومئذ أم البلاد.

ورث العصر الذى عاش فيه أبو الفرج الأصبهانى أضخم ميراث فى كل أفق من آفاق الحياة، فى النواحى المادية والنواحى الفكرية: ورث حضارة بنى العباس، فمَن دخل قصورهم فى تلك الأيام ورأى ما اشتملت عليه من الندامى والقيان والنَّوْر والبنفسج والنرجس وفاخر الفرش ومختار الآلات بلغ العجب منه كل مبلغ. لقد كان الرشيد يصطبح فى بعض الأيام فيحضره من جواريه المغنيات والخدم فى الشراب زهاء ألفى جارية فى أحسن زىّ من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر، وكان يبعث فى بعض الأحيان من يجبى له المال من ناحية الموصل فيجبى له منها مالا عظيما من بقايا الخراج، فيوافى به باب الرشيد فيأمر بصرف المال أجمع إلى بعض جواريه، حتى استعظم الناس ذلك وتحدثوا به. وكان من عواقب هذا التبذير أن دبّ السوء فى الدولة كلها، فى دار الخلافة وأطراف البلاد، فقد كان عمال الخليفة يوجهون إلى دار الخلافة رسلهم فينفّذ لهم رجال الخليفة كتبهم، فيدفع الرسل الأموال إليهم. وبلغ من استرسال الخلفاء إلى اللهو أنه لما نعى إسحق إلى المتوكل فى وسط خلافته غمه وحزن عليه، وقال: ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته. وقد مضى للواثق قول فى هذا المعنى أبلغ من قول المتوكل فقد قال: وإن إسحق لنعمة من نعم

الملك التى لم يحظ بمثلها ، ولو أنّ العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكى !

بلغ اللهو والتبذير فى قصور طائفة من بنى العباس المبالغ ؛ وإذا أردنا أن نعرف ضخامة تلك القصور والتأنق فى بنيانها فلنرجع إلى شعر البحترى ، فهو وحده يحيى لنا قصوراً حيطانُها من زجاج وسقوفُها من ذهب، وبركُها من رخام .

ورث عصر أبى الفرج الأصبهانى هذا كله ، ولكنه ورث أيضاً ميراثاً فكرياً أضخم وأجلّ ، فقد خلّفت له العصور السابقة أعظم ما وصلت إليه عبقرية العرب فى النثر والشعر . فالجاحظ مات فى العصر الذى ولد فيه أبو الفرج. وإذا ذكرنا الجاحظ فكأنا ذكرنا خلاصة عبقرية العرب بأجمعها . وأبو تمام والبحترى وابن الرومى تركوا شعرهم للعصر الذى نشأ فيه أبو الفرج الأصبهانى ، وهم من هم فى ضخامة الشعر ورقة الخيال ودقة الوصف . وقد عاش أبو الفرج فى العصر الذى عاش فيه شاعر ملأ الدنيا وشغل الناس وهو المتنبى . وفى الجملة كان ميراث عصر أبى الفرج الأصبهانى عظيماً فى كل ناحية من نواحى منظوم القول ومنثوره .

اختمرت اللغة فى ذلك العصر فقدرتْ على وصف دقائق الحياة وجلائلها ، واختمر الشعر فلم يعجز عن وصف أضخم ما بناه الخلفاء من القصور ، واختمر النقد فنشأت آراء النقاد فى المتقدمين من الشعراء والمحدثين ، وذهبت الأفهام فى هذا المعنى كل مذهب .

٢ — الحالة السياسية

أما من نواحى السياسة وبعض النزعات فقد فتح أبو الفرج الأصبهانى عينيه فى بغداد فعاش فى عصر بنى بويه ، ونادم الوزير المهلبى ، وكان كاتباً لركن الدولة ، واتصل بسيف الدولة ، وراسل بنى أمية فى بلاد المغرب . فمن ذِكْر بنى بويه فى بغداد ، وبنى حمدان فى حلب ، وبنى أمية فى الأندلس نعرف وجهة العصر الذى عاش فيه أبو الفرج الأصبهانى ، فقد عاش فى عصر

غلبت فيه نزعات شتى : نزعة فارسية فى بغداد وما وراءها ، ونزعة قومية فى حلب ، ونزعة أموية فى بلاد المغرب ؛ ولا بدّ فى غلبة النزعة الفارسية من نشوء الشعوبية ، فقد نشأت الشعوبية فى العرب ، وكان همها الأكبر الطعن على العرب فى كل مذهب من مذاهبها : طعنت فى خطباء العرب بأمور كثيرة فلم تجد للعرب فضلا فى خطبها وعقولها وحكمها وحروبها وآلات هذه الحروب ، ولم تنظر إليهم إلا نظرتها إلى رعاة إبل وغنم قد جفا كلامهم ، وغلظت مخارج أصواتهم ، وساءت مآكلهم وخشنت ملابسهم ، والخلاصة أن همّ الشعوبية الأكبر كان تهديم سلطان العرب فى كل ناحية من النواحى : فى الدين والسياسة والعلم والأدب ، فقد تتبعوا العرب فى كل شىء وألفوا كتباً فى مثالبهم حتى تصدّى من العرب من ردّ عليهم وفنّد مزاعمهم ؛ ولا شك فى أن اتساع صدور العرب لجماعة يحاولون تهديمهم فى حياتهم ، وسماحهم لهم ببثّ أفكارهم ، أكبر دليل على حرية الرأى فى زمنهم ؛ وليس معنى هذا أن أصحاب الأمر كانوا يسكتون عنهم ، فقد كانت الشعوبية ذنباً من الذنوب لأن للحرية حدوداً إذا جاوزت هذه الحدود — وخاصة فى أمور قومية — فقد تؤدى إلى ذهاب السلطان ، ولكن على الرغم من تعقب الشعوبية فقد استطاعت أن تنشر دعوتها وتبث أفكارها وتشغل العرب بالرد عليها .

وكما نشأت الشعوبية فى بعض آفاق الدولة فقد نشأت النزعة القومية فى آفاق ثانية ، وأعنى بها حلب وصاحبها سيف الدولة ، ومن رجع إلى شعر المتنبى فى سيف الدولة تحققت عنده هذه النزعة ؛ وقد كانت النزعة القومية مذهب طائفة من الشعراء الذين تغنّوا بسيف الدولة كالسري وأبى فراس وابن نباتة ، فإن شعرهم لم يكد يخلو من ذكر العرب والإشادة بهم ؛ على أن الحرب التى كانت تدور بين المسلمين والروم قد صبغت بصباغ دينى ، فكان ملك الروم إذا غزا بلاد المسلمين يجهز رجاله بالصليب الأحمر ، وكان شعراء العرب يومئذ يذهبون فى بعض شعرهم مذاهب إسلامية مجاراة لطبيعة الحرب بين الروم والمسلمين ، إلا أن النزعة الغالبة على شعرهم كانت نزعة قومية .



الفصل الثانى

أبو الفرج الاصبهانى فى عصره

١ — حياة أبى الفرج الأصبهانى

أتى أصحاب التراجم على نسب أبى الفرج الأصبهانى ، وحسبنا أن نعرف أن اسمه على بن الحسين بن محمد الأصبهانى ، وأن نسبه يتصل بعبد مناف ، فهو من بنى أمية ، من ولد محمد بن مروان بن الحكم .

ولد بأصبهان ، وقد أجمعوا على أن مولده كان سنة أربع وثمانين ومائتين ، ولكنهم اختلفوا فى وفاته ، فأكثرهم قال إن وفاته كانت سنة ست وخمسين وثلثمائة ، وعلى هذا يكون عمره اثنتين وسبعين سنة ؛ وبعضهم قال إنه عاش ثلاثاً وسبعين سنة . وأضافوا إلى ذلك أنه خولط فى عقله قبل أن يموت وأصابه الفالج .

نحاول أن نعرف فى هذا الفصل شيئاً من نشأته الأولى فى داره ، ومن ثقافته وأساتذته وتلاميذه ، ومن أهله الذين نشأ بينهم . فهذه أمور غامضة فى أكثر تاريخ أدبائنا ؛ على أن الذين دوّنوا ترجمة أبى الفرج الأصبهانى قد يزيد عددهم على اثنين وعشرين مؤرخاً ، ولكن للتراجم فنّاً خاصّاً ولم يتقنه فى القديم والحديث إلا قليل من الكتاب ، فعلى الكاتب فى هذا العصر أن يستخرج أكثر أحوال المؤلفين من مؤلفاتهم وهذا أمر غير يسير .

عاش أبو الفرج فى بغداد ، وقد نقل ياقوت فى معجم الأدباء عن ابن الصابئ أنّ دار أبى الفرج الأصبهانى فى بغداد كانت واقعة على دجلة فى المكان المتوسط بين درب سليمان ودرب دجلة ، وملاصقة لدار أبى الفتح البريدى . وفى الحكاية التى سننقلها فى ذكر قذارته ما يصف لنا بعض الوصف كيف كانت عيشته فى داره ، فقد كان يشكو الفأر ويأنس بالسنانير حتى

إذا لحق سنّوره قولنج كان يحقنه بيده ، وقد دلت على اهتمامه بالسنانير قصيدته فى وصف الهر ، وربما كان يجد فى صحبة الهر من الوفاء ما لا يجده فى صحبة أكثر أصحابه . وسنثبت هذه القصيدة فى فصل النماذج من آثار أبى الفرج الأصبهانى . والظاهر أنه كانت له عناية خاصة بالحيوان ، فكما وصف الهر فقد رثى ديكاً له كان يألف قربه فحزن عليه حزناً دائماً .

هل تزوج وهل كان له ولد ؟

إذا رجعنا إلى قصيدته التى يستميح فيها المهلبى قرأنا فيها الأبيات التالية [١] :

وهذا الشتاءُ كما قد ترى ... عسوفٌ علىّ قبيح الأثرْ
يغادى بصرٍّ [٢] من العاصفا ... ت أو دمَقٍ [٣] مثل وخز الإبرْ
وسكان دارك ممن أعو ... لُ يلقين من برده كل شرّ
فهذى تحنُّ وهذى تئنُّ ... وأدمع هاتيك تجرى درر [٤]
إذا ما تململن تحت الظلام ... يعلّلن منك بحسن النظرْ
ولاحظن ربعك كالممحلين ... شاموا البروق وجاء المطرْ
يؤملن عودى بما ينتظرن ... كما يرتجى آئبٌ من سفرْ

فربما كان له بنات ، وهذا كل ما نعرف من صدر أمره .

ولكنّ الغريب أن يشكو هذا الفقر ، على أنه — كما تبين لنا ذلك فى كلامنا على عصره — قد اتصل بأعاظم زمانه ، فى جملتهم سيف الدولة بن حمدان الذى أعطاه ألف دينار على كتاب الأغانى ، وكان من ندماء الوزير المهلبى الخصيصين به ، وكانت صحبته له قبل الوزارة وبعدها إلى أن فرق بينهما الموت ، وبلغ من اطراح الكلفة بينهما المبالغ ، ثم كان كاتباً لركن الدولة حظيًّا عنده محتشماً لديه ، وكان يصنف تصانيفه ويرسلها إلى المستولين على بلاد المغرب من بنى أمية ، وكانوا يحسنون جائزته .

---

(١) « معجم الأدباء » ج ١٣ ص ١٣٥ .
(٢) ريح صر : شديدة البرد .
(٣) الدمق : الريح والثلج .
(٤) الدرر : جمع درة وهى فى الأمطار أن يتبع بعضها بعضاً .

وإذا رجعنا إلى كتاب الأغانى استطعنا أن نستخرج من هذا الكتاب الجليل أنماطاً من ثقافة الأسرة التى نشأ فيها أبو الفرج الأصبهانى ومن طبائعه وأخلاقه .

٢ – نشأته

نشأ أبو الفرج فى بيت يذوق أهله الأدب ويجعلونه أحاديثهم ، وقد أيدت ذلك أخبار وردت فى الأغانى[١] فمن شاء فليرجع إليها فقد كانت بين أهل أبى الفرج الأصبهانى وبين آل المرزبان مودة قديمة وصهر ، وكان ابن المرزبان يحدث والد أبى الفرج بشىء من الشعر على سبيل المذاكرة ومن هذا النوع كانت أحاديث عمه ووالدة عمه .

وكما نشأ فى بيت يُعنى أهله بالأدب فقد نشأ فى بيت يُعنى أهله بالغناء ، فقد جاءت فى الأغانى أخبار[٢] تدل على أن والد أبى الفرج طلب الغناء ، وأن عمته كان لها ذوق فى الغناء وفى الشعر .

فإذا كان للتربية أثر فقد يجوز أن يكون لتربية أبى الفرج الأصبهانى الأولى أثر غير قليل فى انصرافه إلى الأدب وعنايته بالغناء ، فقد كان له باع فى الغناء طويل وهذا أمر يؤيده تأليفه فيه . من ذلك رسالته إلى بعض إخوانه فى علل النغم ، وقد ذكرها فى الأغانى[٣] . ومن ذلك دخوله فى المناظرات والمجادلات والمراسلات والمشافهات التى كانت تجرى بين أئمة المغنين ؛ وآراؤه فى هذا المعنى مبثوثة فى أضعاف كتاب الأغانى .

٣ – تأثره وتأثيره

وقد وسّع آثار هذه التربية الأولى الأساتذة الذين تخرج عليهم أبو الفرج الأصبهانى .

---

(١) « الأغانى » ج ٢٠ ص ١٣١ .
(٢) « الأغانى » ج ٧ ص ١٣٣ .
(٣) « الأغانى » ج ٨ ص ٢٥ .

من هم هؤلاء الأساتذة ؟

روى أبو الفرج عن طائفة جليلة عاشوا بين العصرين الثالث والرابع ، نعرف منهم ابن دريد وابن الأنبارى والجمحى والأخفش ونفطويه والطبرى وابن المزربان وابن قدامة واليزيدى وغيرهم من رجال اللغة والنحو والأدب والشعر والأنساب والأخبار والحديث والتفسير والتاريخ ؛ ولا شك فى أن لهؤلاء الأساتذة أثراً عظيما فى عبقرية أبى الفرج ؛ وإذا أردنا أن نعرف فضل الأساتذة الذين حمل أبو الفرج الأصبهانى العلم عنهم فلنسمع رأيه فيهم ، فقد قال فى أخبار أبى محمد يحيى بن المبارك[1] : « وآخر من بقى من علماء هذا البيت أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبى محمد ، وكان فاضلا عالماً ثقة فيما يرويه ، منقطع القرين فى الصدق وشدة التوقى فيما ينقله ، وقد حملنا نحن عنه وكثير من طلبة العلم ورواته علماً كثيراً فسمعنا منه سماعاً جمًّا » .

هذه هى طبقة الأساتذة الذين تخرج عليهم أبو الفرج الأصبهانى ، فقد سهل علينا أن نعرف طبيعة ثقافته .

إلا أننا على الرغم من تصانيفه التى لم نطلع عليها ،ولا اطلعنا على أكثرها ، لا نعتمد فى كلامنا على عبقرية أبى الفرج الأصبهانى إلا على كتاب الأغانى وحده فهو يغنينا عن بقية كتبه .

وكما تخرج أبو الفرج الأصبهانى على أساتذة مشهورين فقد تخرج عليه فريق من الأدباء منهم شيخ أندلسى قدم من الأندلس لطلب العلم ولزم أبا الفرج ، وكان أبو الفرج يعظمه ويكرمه ويذكر ثقته ، ومنهم ابن دينار الذى قرأ عليه جميع كتاب الأغانى ، ومنهم طائفة أخرى أشار إليها الخطيب البغدادى فى تاريخه .

فأبو الفرج الأصبهانى أخذ فى الأدب وأعطى ، ومارس الأستاذية ولم يقتصر على التأليف وحده .

---

(١) « الأغانى » ج ١٨ ص ٧٣

٤ – صورته وأخلاقه

ما هى هيئة أبى الفرج ؟

هذا شىء لم يشر إليه أكثر الذين ذكروا ترجمته ، على أن أبا الفرج الأصبهانى فى أكثر تراجمه فى الأغانى قد وصف هيئة أصحابها وملابسهم ومآكلهم ومشاربهم وغير ذلك ، وقد نجد فى بعض مواطن من تراجمه وصف هيئة من الهيئات لا نكاد نجد مثيله فى هذه الأيام .

إلا أنهم إذا غفلوا عن ذكر هيئته فلم يغفلوا عن الإشارة إلى ملابسه وبعض أخلاقه ، فقد ذكر ياقوت فى معجم الأدباء نقلا عن غيره أنه كان وسخاً قذراً لم يغسل له ثوباً منذ فصّله إلى أن قطعه ؛ وكان الوزير المهلبى يحتمل له ذلك لموضعه من العلم ، وأنه كان وسخاً فى نفسه ثم فى ثوبه ونعله ، حتى إنه لم يكن ينزع دراعة إلا بعد إبلائها وتقطيعها ، ولا يعرف لشىء من ثيابه غسلا ولا يطلب منه فى مدة بقائه عوضاً ، ورويت فى هذا المعنى قصص مختلفة منها :

قال ابن الصابئ : وحدثنى جدى أيضاً قال : قصدت أنا وأبو على الأنبارى وأبو العلاء صاعد دار أبى الفرج لقضاء حقه وتعرف خبره من شىء وجده ، وموقعها على دجلة فى المكان المتوسط بين درب سليمان ودرب دجلة ، وملاصقة لدار أبى الفتح البريدى ، وصعد بعض غلماننا لإيذانه بحضورنا ، فدقّ الباب دقّاً عنيفاً حتى ضجر من الدق وضجرنا من الصبر ، قال : وكان له سنور أبيض يسميه يققاً ، ومن رسمه إذا قرع الباب قارع ، أن يخرج ويصيح إلى أن يتبعه غلام أبى الفرج لفتح الباب أو هو نفسه ، فلم نر السنور فى ذلك اليوم ، فأنكرنا الأمر وازددنا تشوقاً إلى معرفة الخبر ، فلما كان بعد أمد طويل صاح صائح أن « نعم » ، ثم خرج أبو الفرج ويده متلوثة بما ظنناه شيئاً كان يأكله، فقلنا له : عققناك بأن قطعناك عما كان أهم من قصدنا إياك .

فقال : لا والله يا سادتى ، ما كنت على ما تظنون ، إنما لحق يققاً – يعنى سنوره – قولنج ، فاحتجت إلى حقنه ، فأنا مشغول بذلك ، فلما سمعنا قوله ورأينا الفعل فى يده ورد علينا أعظم مورد من أمره لتناهيه فى القذارة إلى ما لا

غاية بعده ، وقلنا : ما يجوز أن نصعد إلى عندك فنعوقك عن استتمام ما أنت فيه ، وإنما جئناك لتعرّف خبرك ، وقد بلغنا ما أردناه وانصرفنا .

وأضافوا إلى هذا النوع من القصص قصة أخرى تتعلق بمآكله ، فقد حدّث القاضى أبو على الحسن بن على التنوخى فى كتاب « نشوار المحاضرة » قال : ومن طريف أخبار العادات أنى كنت أرى أبا الفرج على بن الحسين الأصفهانى الكاتب نديم أبى محمد المهلبى صاحب الكتب المصنفة فى الأغانى والقيان وغير ذلك ، دائماً إذا ثقل الطعام فى معدته — وكان أكولا نهماً — يتناول خمسة دراهم فلفلا مدقوقاً فلا تؤذيه ولا تدمعه ، وأراه يأكل حمصّة واحدة أو يصطبغ بمرقة قدر فيها حمص فيسرهج بدنه كله من ذلك ، وبعد ساعة أو ساعتين يفصد ، وربما فصد لذلك دفعتين ، وأسأله عن سبب ذلك فلا يكون عنده علم منه ، وقال لى غير مرة : إنه لم يدع طبيباً حاذقاً على مرور السنين إلا سأله عن سببه ، فلا يجد عنده علماً ولا دواء ، فلما كان قبل فالجه بسنوات ذهبت عنه العادة فى الحمص فصار يأكله فلا يضره وبقيت عليه عادة الفلفل .

هذه حكايات لا نستطيع دفعها إذا وقعت وإذا صحّ أن بعض شيوخ أبى الفرج كانوا مثله فى هذا المعنى وهم نفطويه وجحظة ، فقد يجوز أنه كان يتشبه بهم لشذوذ فى عاداته ، ولكن الذى نستغربه أن يكون أبو الفرج الأصبهانى من ندماء الوزير المهلبى وهو فى شديد تقشفه وعظيم تنطسه ، وأن يحتملّ المهلبى مثل ما ذكر على مائدته ، على أنا نعرف فى عصرنا هذا عالماً من أجلّ العلماء وهو الشيخ طاهر الجزائرى قد شذّ فى أكله وشربه ولبسه عن المألوف من العادات ولم يبال بذلك وكان العظماء يحتملون ذلك منه .

وكما أشار بعض المؤرخين إلى شذوذ أبى الفرج فى أكله ولبسه فقد أشاروا إلى بعض مزاجه وأخلاقه ، فقد قالوا إن الناس فى عهده كانوا يحذرون لسانه ويتقون هجاءه ويصبرون فى مجالسه ومعاشرته ومواكلته ومشاربته على كل صعب من أمره .

ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن أبا الفرج الأصبهانى كان من الظرفاء ، فقد كان يميل إلى النوادر ، نجد الهزل مستفيضاً فى كتاب الأغانى ، وظرفه

هذا هو الذى جعل الوزير المهلبى والعظماء يرغبون فى منادمته ، فمن دلائل ظرفه الخبر الآتى[1] :

« قال غرس النعمة : حدثنى أبى قال : كان أبو القاسم الجهنى القاضى — وأظنه من أهل البصرة وتقلد الحسبة بها ومنها عرف أبا محمد المهلبى وصحبه — يشتمل على آداب يتميز بها ، إلا أنه كان فاحش الكذب ، يورد من الحكايات ما لا يعلق بقبول ولا يدخل فى معقول ، وكان أبو محمد قد ألف ذلك منه وقد سلك مسلك الاحتمال ، وكنا لا نخلو من حديثه من التعجب والاستظراف والاستبعاد ، وكان ذلك لا يزيده إلا إغراقاً فى قوله وتمادياً فى فعله . فلما كان فى بعض الأيام جرى حديث النعنع وإلى أى حد يطول فقال الجهنى : فى البلد الفلانى يتشجر حتى يعمل من خشبه السلاليم ، فاغتاظ أبو الفرج الأصبهانى من ذلك وقال : : نعم عجائب الدنيا كثيرة ، ولا يدفع مثل هذا وليس بمستبدع ، وعندى ما هو أعجب من هذا وأغرب ، وهو زوج حمام راعبى يبيض فى نيف وعشرين يوماً بيضتين فأنتزعهما من تحته وأضع مكانهما صنجة مائة وصنجة خمسين ، فإذا انتهى الحضان تفقست الصنجتان عن طست وإبريق أو سطل وكرنيب . فعمنا الضحك ، وفطن الجهنى لما قصده أبو الفرج من الطنز ، وانقبض عن كثير مما كان يحكيه ويتسمح فيه ، وإن لم يخل من الأيام عن الشىء بعد الشىء منه » .

— من المؤسف أنا لم نطلع على كتبه كلها ولو وصلت إلينا تصانيفه لاستخرجنا من بعضها صورته ، سواء أكانت كاملة أم كانت غير كاملة ، فمن كتبه كتاب « أدب الغرباء » ، وقد نقل عنه ياقوت فى معجم الأدباء بعض الفصول التى تدل على أن أبا الفرج كان يشرب ، وعلى أنه كان فى أيام الشبيبة والصبا يألف فتى من أولاد الجند ، ولكن هذه العادة كانت فاشية فى تلك الأيام فلا نستغربها ، فإن أدبنا ملآن من الأشعار التى تدل على الشرب وعلى شىء أكثر من الشرب . ولم يقتصروا على هذا كله فقد رماه بعض المؤرخين بالكذب ، فقد قال النوبختى فيه ، وهو من أهل عصره : كان أبو الفرج الأصبهانى أكذب

---

(١) « معجم الأدباء » ج ١٣ ص ١٢٣

الناس ، كان يدخل سوق الوراقين وهى عامرة بالد كاكين مملوءة بالكتب فيشترى شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها .

وإذا لم نجد سبيلا إلى الدفاع عن أبى الفرج الأصبهانى فى اتهامه بالوساخة والقذارة وسلاطة اللسان وما شابه ذلك ، فقد نجد مثل هذه السبيل فى إنصافه فى بعض أخلاقه .

يسهل علينا أن نتهم رجلا بالكذب، ولكن المهم أن نأتى ببرهان على كذبه . يسلخ صاحب الأغانى خمسين سنة فى تأليف كتابه ، ويتبع فيه الصدق وشدة التوقى على قدر الإمكان فيجهد نفسه فى البحث عن أصح الأخبار والروايات والأحاديث ، ويتبرأ فيها من كل عهدة ، ويحاسب الرواة على الأكاذيب والخطأ والخطل ، يؤاخذهم بكل تحامل وحمق وسب وشتم وتجهيل ، فيجىء أحد النقاد فيقول فيه إنه أكذب الناس ، دون أن يكلف نفسه بيان موطن من مواطن هذا الكذب ، هذا هو الكلام الذى لا يرضى به منطق ولا خلق ولا وجدان ، كان يجب على الذين نقدوا أبا الفرج ونسبوا الكذب إليه أن يأتوا بالحجة على قولهم وأن يشيروا إلى المواضع التى ظهرت عليها آثار الكذب حتى ينظر العقل فى مقادير أقوالهم ، أما أن يجازفوا بحكمهم مجازفة فهذا شىء يذهب جفاء ، إن الحجة لا ترد إلا بالحجة ، فلا نستطيع أن نهدم بكلمة مجردة ما بناه غيرنا فى خمسين سنة ، فضلا عن أن عملا مثل هذا العمل لا يخلو من كثير من قلة الإنصاف .

وكما نعتقد صدق أبى الفرج فى رواياته ، فقد نعتقد فيه أخلاقاً ثانية ليست أقل من الصدق . نجد فى أخلاقه كثيراً من المسامحة والإنصاف وأدب النفس وغير ذلك ، وقد تهمنا معرفة هذه الأخلاق لصلتها القوية برواياته لأن كتاب الأغانى مبنى على الروايات والأسانيد .

فمن أخلاقه أنه لا يجعل لأخلاق أهل الفن صلة بنقد فنهم ، فإذا ذكر طائفة سيئة من أخلاق بعض الشعراء فإنه يفصلها عن شعرهم ولا يجعل لها تأثيراً فى نقد هذا الشعر ، من هذا النحو رواية خبر فى كلامه على الأحوص[1]

---

(١) « الأغانى » ج ١٥ ص ٩٦

يغض من أخلاق الأحوص ، وبعد أن روى هذا الخبر قال :

« وليس ما جرى من ذكر الأحوص إرادة للغض منه فى شعره ، ولكنا ذكرنا من كل ما يؤثر عنه ما تعرف به حاله من تقدم وتأخر وفضيلة ونقص ، فأما تفضيله وتقدمه فى الشعر فتعالم مشهور وشعره ينبئ عن نفسه ويدل على فضله فيه وتقدمه وحسن رونقه وتهذبه وصفائه » .

فهذا كلام غاية فى نزاهة النقد ، يكاد يكون المثل الأعلى فى هذا الباب ، وخاصة فى عصر مثل عصرنا تعود أكثر الناس فيه أن يكون حكمهم على رجل من رجال الفن مبنياً على قدر محبتهم إياه أو بغضهم له ، ينظرون إلى من قال لا إلى ما قيل ، فيطمسون الحسنات وينقرون عن السيئات .

وقد نجد مثل نزاهة هذه الأخلاق فى مواطن كثيرة من كتاب الأغانى ، نكتفى بالإشارة إليها تفادياً من التطويل . من ذلك كلامه على أبى تمام ، ودفاعه عن ابن المعتز ، وإنصافه لكعب بن الأشرف على يهوديته .

هذا أكثر ما نعرفه عن حياة كاتب سنجد أنه انفرد بنوع من الموضوعات لم ينفرد به غيره من الكتاب.

٥ ـ مشاركته فى أحوال عصره

ا ـ التشيع والقومية

اتصل أبو الفرج الأصبهانى بملوك ووزراء كانت نزعاتهم متباينة ، فساير دولة أصلها فارسى ومذهبها الشيعة وهم بنو بويه ، وملكاً نزعته قومية وهو سيف الدولة ، ودولة فى المغرب نزعتها أموية وهم بنو أمية ، فمن بدائه الأمور أن تظهر على تصانيفه آثار العصر الذى عاش فيه ففى كتاب « مقاتل الطالبيين » ظهر ميل أبى الفرج إلى الشيعة ، وفى كتب أنساب بنى عبد شمس وبنى شيبان والمهالبة وبنى تغلب ظهر ميله إلى العرب ، وإن كنا لم نطلع على هذه الكتب ، ولكن عناوينها تدل على أن فيها روحاً قومية . ولا شك فى أن التصانيف التى كان يرسلها إلى المستولين على بلاد المغرب من بنى أمية كانت تشتمل على روح أموية ، وفى كتاب الأغانى ظهر ميله إلى تصوير لهو الخلفاء وتبذيرهم .

لا بل إلى تصوير الحياة بأجمعها ، وهكذا نجد أن أبا الفرج الأصبهانى قد اشترك فى عصره من أكثر نواحيه .

إلا أن أبا الفرج على الرغم من تشيعه لم ينحرف عن الحق فى هذا التشيع ، وإذا كنت أتعرض لتشيع أبى الفرج فى مثل هذا المقام فإنما أتعرض له للبحث عن آثار تشيعه وعواقبه فى أخباره ورواياته وأحاديثه وما شابه ذلك ، فإن الذين ينسبون التشيع إليه لا يقتصرون على مشايعته لعلى رضى الله تعالى عنه أو لذريته ، وإنما يريدون بذلك أنه غير ثقة فى الأخبار التى يرويها عن الذين انحرفوا عن على وحزبه وقاتلوهم كبنى أمية مثلا أو كبنى العباس الذين قاتلوا الطالبيين .

فإذا كان هذا هو المراد بتشيع أبى الفرج وكنت لا أجد فى روايته أثر التعصب فى هذا التشيع فقد لزمنى أن أفتش فى كتاب الأغانى عن المواطن التى ظهر فيها تجرد أبى الفرج فى نقل أخبار طائفة من خلفاء بنى أمية ، ولا سيما يزيد بن معاوية ، فإن تشيع أبى الفرج يقتضيه التحامل عليه والغض منه ومن حسناته ، أو الغلو فى ذكر سيئاته ، فإذا كان أبو الفرج متجرداً فى رواياته المتعلقة ببعض خلفاء بنى أمية فلا شك فى أن تشيعه الذى نسب إليه لم يؤثر فى هذه الروايات ، ولاطوى من حسنات المنحرفين عن على ، ولا زوّر سيئات عليهم . معنى هذا كله أنه كان ثقة فى أخباره يحاسب ضميره ووجدانه ، يقول الحق على جماعته وعلى عدوه على السواء .

لقد اطلعت على أخبار رواها أبو الفرج فى كتاب الأغانى لا تدل على شىء من التعصب على خصوم على ، وهذه الأخبار حجة لنزاهته وإنصافه فى التشيع .

كيف ننسب إلى التعصب فى التشيع رجلا يروى عن عبيد الله بن زياد أحسن الأخبار [١] التى تصور عقله الراجح ورفقه بالرعية وتفصح عن فضائل أبيه زياد ؟ أم كيف ننسب إلى التعصب فى التشيع رجلا يروى عن بنى أمية كلاماً يضعهم فى أرفع المواضع [٢] .

---

(١) « الأغانى » ج ٢١ ص ٢٥

(٢) « الأغانى » ج ٢١ ص ٩٤

ولم يقتصر أبو الفرج على الإشارة إلى محاسن عبيد الله بن زياد والإشادة بمكارم أخلاق بنى أمية على وجه عام ، وإنما خصّص بعد التعميم فأشار إلى فضل يزيد بن معاوية[١] .

وكما روى أخباراً تتصل بمحاسن يزيد بن معاوية فقد روى أخباراً تتصل بمحاسن هشام ، فقال إن هشاماً لم يكن يشرب ولا يسقى أحداً بحضرته مسكراً ، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه[٢] .

وقد يطول بى الاستشهاد فى هذا المعنى ، فلو كان أبو الفرج متعصباً فى تشيعه خالياً من روح النزاهة والتجرد لطمس مثل هذه الأخبار فى كتاب الأغانى ولكنه كان رجلا منصفاً يذكر محاسن بنى أمية ولا يغفل فى بعض الأحايين عن الإشارة إلى آراء الناس السيئة فيهم ، وأعظم من هذا كله فقد روى فى كتاب الأغانى خبراً يسىء إلى سيدنا على أكثر مما يحسن إليه .

اتصل أبو الفرج الأصبهانى بعصره من ناحية التشيع فساير دولة فى بغداد شعارها التشيع ، وألف كتابه « مقاتل الطالبيين » ولكنه لم يتعصب فى تشيعه ولم ينحرف عن الحق فى رواياته وحكاياته وأحاديثه[٣] .

وكذلك ساير دولة نزعتها فارسية ولكنه لم يكن شعوبيًّا ، فإن سيف الدولة الذى أعطاه ألف دينار على كتاب الأغانى كانت العروبة شعاره ، يدل على ذلك شعر الشعراء الذين أحاطوا به وفى رأسهم المتنبئ ، فإن كلمة العرب لا تكاد تخلو قصائدهم منها ، وكتبه التى ألفها فى بعض أنساب العرب تدل على هذه النزعة كأنساب بنى شيبان وغيرهم ممن تقدم ذكرهم .

لقد نقل أبو الفرج فى كتاب الأغانى كثيراً من أخبار البرامكة ، وهى تدل على فرط كرمهم وأدب نفوسهم ، وأى ذنب له فى تدوين أخبار تدل على فرط الجود وأدب الخلق ؟ وكذلك ذكر عن عبد الله بن طاهر قصة إذا دلّت على شىء فإنها تدل على عفو صدر عن نفس كريمة وخلق سمح .

وكذلك نقل كلاماً لحسان بن ثابت فيه شىء من الموازنة بين شرب جبلة

---

(١) « الأغانى » ج ٧ ص ١٨

(٢) « الأغانى » ج ٥ ص ١٥٩

(٣) « الأغانى » ج ١١ ص ٢٩

ابن الأيهم وبين شرب جماعة من المسلمين ، أفيلام أبو الفرج إذا أشاد حسان بحلم جبلة فى الشرب وببعده عن الخنى والعربدة وإذا ندّد بشرب مسلم من المسلمين لا يشرب ثلاثة أقداح حتى يصاحب صاحبته ويفارقها وتضرب فيه كما تضرب غرائب الإبل ؟ !

إذا كان أبو الفرج شعوبياً فلماذا روى خبر وقعة ذى قار فى كتاب الأغانى[1] ، التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبى نُصروا .

عاش أبو الفرج فى عصر استفاص فيه التشيع والشعوبية ولكنه كان مجرداً فى تشيعه مخلصاً فى عروبيته فقد استطاع أن يتملص من آثار هذا العصر فى تصانيفه وأن يترفع عما لم يترفع عنه غيره .

ب — النقد والأدب

وإذا استفاضت حرية الحياة فى عصره فقد ظهرت آثار هذه الحرية على كتاب الأغانى فتكلم على لهو الخلفاء وتبذيرهم وترفهم ، تكلم على أشياء مخيّفة ، فكان همّه أن يدخل قصور الخلفاء ويسمع بأذنيه ما يتساقطونه من الأحاديث ، ويرى بعينيه منازل الجوارى والقيان والمغنيات من قلوبهم ، فكان له نزعة خاصة إلى أشباه هذه الأخبار حتى يعلم الناس بما يجرى فى قصور خلفائهم وأمرائهم وعمالهم ، وحتى يطلعهم على أمور تذهب بكل هيبة وبكل حرمة ، فإذا كانت غايته ما أشرت إليه فلا شك فى أن فضله عظيم ، فقد نبه الأذهان على أمور كانت عنها غافلة ؛ والخلاصة فقد حرّض الناس على حرية الحكم والرأى .

وكما شارك أبو الفرج الأصبهانى عصره من أكثر النواحى فقد شاركه من الناحية الأدبية . ومن رجع إلى آرائه فى النقد المبثوثة فى أضعاف كتاب الأغانى استطاع أن يدرك مدى هذا الاشتراك ، فقد كان إماماً من أئمة النقد فى الأدب أولع بتتبع الشعراء حتى يعرف مصادر شعرهم ، كما أولع فى الحياة بتتبع الخلفاء حتى يعرف أسرار حياتهم ، فقد تعقب أبا العتاهية وأبا نواس

---

(١) « الأغانى » ج ٢٠ ص ١٣٢

وأبا تمام والبحترى ، ولكنه كان يميل إلى الاعتدال فى نقده ويكره الإسراف .

أما رأيه فى قضية القديم والحديث فهو رأى ظاهر ، فقد كان يجرى مجرى الزمن ولا يجمد على حال ، فهو يعلم أن لكل عصر أطواراً وأن الشعر ينبغى له أن يتبع هذه الأطوار ، من ذلك رأيه فى شعر ابن المعتز ، فإنا نرى أبا الفرج فى هذا النوع من النقد صاحب مذهب ، فهو من المجددين الذين يرون لكل عصر أحوالا خاصة فى الذوق والشعور ؛ ورأيه فى ذلك رأى أكابر رجال الأدب واللغة أمثال ابن قتيبة وابن فارس ومن هم فى طبقتهما ، فإن رجلا مثله يعيش فى عصر زهت فيه حضارة بنى العباس لا يمكن أن يعدل عن شعر يشتمل على هذه الحضارة إلى شعر يصف البيد والمهامه والظبى والظليم والناقة والجمل وأمثال هذا كله .

الفصل الثالث

جوانبُ أبي الفَرَجِ الأَصْبَهانِي

١ – آثار أبى الفرج الأصبهانى

يتبين لنا من اختلاف الأساتذة الذين تخرج عليهم أبو الفرج الأصبهانى اختلاف الموضوعات التى عالجها ، وقد تستطيع أن ندرك اتساع الآفاق التى جال فيها إذا أضفنا إلى هؤلاء الأساتذة كثرة الكتب التى كان يطالعها ، فقد مرّ بنا أنه كان يدخل سوق الوراقين وهى عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب فيشترى شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيئة . والظاهر أن الرجل كان له ميل خاص إلى تتبع أنساب القبائل وأخبارها ، وإلى تتبع أخبار المجتمع كأخبار القيان والحمارين والحمارات والغلمان المغنين والحانات وكل ما له صلة باللهو وأشكاله ولا سيما لهو الخلفاء والوزراء والعمال ، وقد بحث فى تصانيفه عن الشعر والأغانى ؛ أما الشعر فقد جمع منه دواوين أبى نواس وأبى تمام والبحترى ، ولم تخف آثار هذه الثقافة على المتقدمين فقد أشادوا فى كلامهم عليه بتصنيفه وأدبه وشعره ، وعالى روايته وحسن درايته ، وأخباره وآثاره ، وأحاديثه المسندة وعلمه بأيام الناس والأنساب ، وحفظه للغة والنحو والمغازى والسير والخرافات ، ومعرفته من آلة المنادمة بشىء كثير مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والأشربة ؛ وقد ظهرت آثار هذه الثقافة المديدة على تصانيفه التى صنفها ، روى منها ياقوت فى « معجم الأدباء » طائفة كبيرة لا بأس بذكرها فى هذا المقام ليكون للقارئ رأى فى الموضوعات التى عالجها أبو الفرج :

« قال ياقوت : وتصانيفه كثيرة وهذا الذى يحضرنى منها : كتاب الأغانى الكبير ، كتاب مجرد الأغانى ، كتاب التعديل والانتصاف فى أخبار القبائل وأنسابها لم أره وبودى لو رأيته ذكره هو فى كتاب الأغانى ، كتاب مقاتل

الطالبيين ، كتاب أخبار القيان ، كتاب الإماء الشواعر ، كتاب المماليك الشعراء ، كتاب أدب الغرباء ، كتاب الديارات ، كتاب تفضيل ذى الحجة ، كتاب الأخبار والنوادر ، كتاب أدب السماع ، كتاب أخبار الطفيليين ، كتاب مجموع الأخبار والآثار ، كتاب الحمارين والحمارات ، كتاب الفرق والمعيار فى الأوغاد والأحرار ، وهى رسالة عملها فى هارون بن المنجم ، كتاب دعوة النجار ، كتاب أخبار جحظة البرمكى ، كتاب جمهرة النسب ، كتاب نسب بنى عبد شمس ، كتاب نسب بنى شيبان ، كتاب نسب المهالبة ، كتاب نسب بنى تغلب ، كتاب الغلمان المغنين ، كتاب الحصيان عمله للوزير المهلبى فى خصيين مغنيين كانا له . وله بعدُ تصانيف جياد فيما بلغنى كان يصنفها ويرسلها إلى المستولين على بلاد المغرب من بنى أمية ، وكانوا يحسنون جائزته ، لم يعد منها إلى الشرق إلا القليل والله أعلم » .

إلا أنا لم نطلع على هذه الكتب كلها والذى اطلعنا عليه من آثاره بعض قصائد فى كتب التراجم وكتابه « مقاتل الطالبيين » وبعض فصول من كتابه أدب الغرباء : غير أن كتابه الخالد إنما هو كتاب الأغانى وعليه معتمدنا فى معرفة خصائص عبقريته .

إنا نأسف الأسف كله على أنه لم يقع إلينا كتابه « أدب الغرباء » بحذافيره فلم يصل إلينا إلا قليل من فصوله دونها ياقوت فى « معجم الأدباء » ؛ ولو وقع إلينا الكتاب بأجمعه لاستطعنا أن نستخرج منه أشياء كثيرة تتعلق بأبى الفرج الأصبهانى ، فمن الفصل الذى أثبته ياقوت تبينت لنا طائفة من أحوال أبى الفرج الخاصة .

وإذا لم يصل إلينا من كتاب « أدب الغرباء » الشىء الكثير فقد وصل إلينا من شعر أبى الفرج الأصبهانى ما يجعلنا ندرك منزلة هذا الشعر ، فقد أشار أكثر أصحاب التراجم إلى شاعرية أبى الفرج وكان لكل واحد رأى خاص فيها ، فبعضهم قال إنه كان شاعراً ، وبعضهم قال إن له شعراً يجمع إتقان العلماء وإحسان ظرفاء الشعراء ، وفريق ذكر أنه كان شاعراً محسناً ، وفريق ذكر أن له شعراً جيداً ، إلا أنه فى الهجاء أجود ، إلى آخر هذه الأحكام .

٢ – أبو الفرج الأصبهانى الشاعر

عالج أبو الفرج الأصبهانى الشعر فى جملة ما عالجه وقد كانت آفاق الأدب على عهده وقبل أيامه مديدة ، فالأديب ينبغى له أن يحيط من كل شىء بطرف ، وعلى هذه الصورة تصدّى أبو الفرج للشعر .

مال فى بعض شعره إلى الصناعة اللفظية التى كانت شائعة فى عصره ، من ذلك قوله فى المهلبى :

ولما انتجعنا عائذين بظله　　أعان وما عنّى ومنّ وما مَنّا

ولكنه لم يسترسل إلى هذا النحو من الشعر ، فكما غلب عليه الطبع فى النثر فقد غلب عليه الطبع فى الشعر . أما قولهم إن شعره فى الهجاء أجود فهو غير مستقيم من كل الوجوه ، فإن هجاءه يخلو من روح السخرية . ولكن الناحية التى برّز فيها وجوّد إنما هى ناحية الوصف ، من ذلك رثاؤه لديك له ، فقد صور أبو الفرج الأصبهانى ديكه تصويراً واضحاً كاملا بفضل عينه الشديدة فى الانتباه وفكره البعيد فى التعمق ، صوّره تصوير شاعر يعرف كيف يصور وكيف ينظر إلى الأشياء ، صوّر ألوانه ومشيته وبعض أجزائه وصوته وطيرانه وطعمه ، واشتملت صورته على كثير من التنسيق والترتيب ، فلم تدخل صورة الديك بعضها فى بعض ، ولا ركب بعضها بعضاً ، وأبو الفرج الأصبهانى رزق من محاسن اللغة والفن الشىء الكثير حتى كدنا نرى الديك يزهى بمحاسن ألوانه ، وكدنا نرى خطرانه وميسانه ونسمع صياحه ، يصبّ أبو الفرج اللفظ فى مواضعه وينزله فى منازله ، وإلى هذا الوضوح فى اللغة والغنى فى الألفاظ المصورة نستطيع أن نضيف الصفات المحسوسة وخصب التشبيهات فى الشعر .

ومن ذلك وصفه للفأر والهر فهو وصّاف ماهر ، وفى كتاب الأغانى مواطن كثيرة تدل على براعته فى الوصف وعلى إتقانه لفنه ، ولم تعوزه هذه البراعة وهذا الإتقان فى شعره نفسه ، فإن عينه لا تغفل عن الألوان ، وأذنه لا تغفل عن الأصوات ، فكما يجد القارئ فى قصيدته فى رثاء الديك التى سنثبتها فى فصل

المختار من نماذج آثاره مصداق هذا كله ، فقد يجد فى قصيدته فى وصف الهر دليلا على قدرته على تتبع دقائق الصفات والإمعان فيها ؛ ومن قرأ هذه القصيدة أحاط علمه بهذه القدرة فقد استوفى من صفات الفأر فى خمسة أبيات ما يعجز النثر عن أمثاله ؛ وكذلك كان استيفاؤه لصفات الهر ، وقد تجد فى دقة هذا الوصف روح ابن الرومى نفسه .

٣ – أبو الفرج الأصبهانى الناثر

ا – المؤرخ

وإذا درجنا من أفق الشعر إلى أفق النثر شعرنا بعبقرية أبى الفرج الأصبهانى ، وأول كتبه التى شاهدناها كتاب « مقاتل الطالبيين » ، فقد شرع فيه وهو ابن تسع وعشرين سنة ، ذكر فى كتابه هذا جملا من أخبار من قتل من ولد أبى طالب منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الوقت الذى ابتدأ فيه هذا الكتاب وهو فى جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وثلثمائة للهجرة ، ومن احتيل فى قتله منهم بسم سقيه وكان سبب وفاته ، ومن خاف السلطان وهرب منه فمات فى تواريه ، ومن ظفر به فحبس حتى هلك فى محبسه ، على السياقة لتواريخ مقاتل من قتل منهم ووفاة من توفى بهذه الأحوال لا على قدر مراتبهم فى الفضل والتقدم ؛ وقد اقتصر فى ذكر أخبارهم على من كان محمود الطريقة سديد المذهب ، لا من كان بخلاف ذلك أو عدل عن سبيل أهله ومذاهب أسلافه أو كان خروجه على سبيل عبث وإفساد ، وقد جمع فى كتابه ما لا يستغنى عن ذكره من أخبارهم وسيرهم ومقاتلهم وقصصهم .

سلك فى كتابه مسالك المحدثين وقد نجد فى بعض هذا الكتاب من وصف الهيئات ما نحتاج إلى مثله فى عصرنا هذا ، من ذلك وصف على بن أبى طالب :

« وكان عليه السلام أسمر مربوعاً ، وهو إلى القصر أقرب ، عظيم البطن ، دقيق الأصابع ، غليظ الذراعين ، خمش الساقين ، فى عينيه لين ، عظيم اللحية ، أصلع ، ناتئ الجبهة » .

ثم نجد طابع أبى الفرج فى كتاب « مقاتل الطالبيين » كما نجده فى كتاب الأغانى ، وأعنى بهذا الطابع الاقتصاد فى البيان ووضع الألفاظ فى مواضعها ووصف الأشياء بحقائق صفاتها ، من ذلك وصف محمد بن القاسم بن على :

« وما رأيت قط أشدّ اجتهاداً منه ، ولا أعف ، ولا أكثر ذكراً لله عز وجل مع شدة نفس واجتماع قلب ، ما ظهر منه جزع ولا انكسار ولا خضوع فى الشدائد التى مرت به ، وإنهم ما رأوه قط مازحاً ولا هازلاً ولا ضاحكاً إلا مرة واحدة » .

وكأنه لما وصف المهلبى فى الاقتصاد فى البيان فقال :

ويقتضب المعنى الكثير بلفظه ويأتى بما تحوى الطوامير فى سطر

أشار إلى نفسه فى هذا البيت .

تجد طابع الصدق فى رواياته على نحو ما نجد مثل ذلك فى كتاب الأغانى ، فإنه إذا نسخ شيئاً من الأخبار من بعض الكتب نبه على ذلك ولم ينسبه إلى نفسه . من ذلك ما قاله فى أخبار محمد بن القاسم بن على :

« أخبرنى بخبره أحمد بن عبد الله بن عمار عن محمد بن الأزهر ونسخت شيئاً من أخباره من كتاب أحمد بن الحارث الحراز » .

وكما نجد طابع الصدق فى كتابه فقد نجد فيه طابع التحقيق ، فقد نقل فى فصل خروج أبى السرايا[1] أخباراً عن جملة من المحدثين منهم : على بن محمد بن سليمان النوفلى ، ولما كان يشك فى على بن محمد فقد نبه على أسباب هذا الشك فقال :

« فربما ذكرت الشىء اليسير منها والمعنى الذى يحتاج إليه لأن على بن محمد كان يقول بالإمامة فيحمله التعصب لمذهبه على الحيف فيما يرويه ، ونسبه من روى خبره من أهل هذا المذهب إلى قبيح الأفعال ، وأكثر حكاياته فى ذلك بل سائرها عن أبيه ، موقوفاً عليه لا يتجاوزه ، وأبوه حينئذ مقيم بالبصرة لا يعلم بشىء من أخبار القوم إلا ما يسمعه من ألسنة العامة على سبيل الأراجيف والأباطيل فيسطره فى كتابه من غير علم طلباً لما شان القوم وقدح فيهم .

---

(١) « مقاتل الطالبيين » ص ٥١٨

فاعتمدت على رواية من كان بعيداً عن فعله فى هذا » .

وقد يمر القارئ فى خلال الكتاب بطرائف من صدق المبادئ ، ولكن الكتاب كله ليس على نمط واحد ، فنى بعضه نقرأ الأخبار فنكاد نجد الحياة تستفيض فيها كلها سواء أكانت تتعلق ببراز أم بموت أم بطراز من المعيشة ، وفى بعضه نقرأ الأخبار وهى تمر بنا مر السحاب وذلك على مقدار شأن الأخبار التى يرويها وعظمة أصحابها وعظمتها نفسها .

ب — الراوية والقاص

إلا أن أثره الخالد على وجه الدهر إنما هو كتاب الأغانى ، وإذا رجعنا إلى مقدمة هذا الكتاب وجدنا فيها الغاية من تأليفه ورأى صاحبه فى فائدته وطبيعته وصحة أخباره ونهجه فى تصنيفه والباعث على تأليفه والمشقة التى احتملها ، وقد نجد فى خاتمة المقدمة ما يدل على ورع المؤلف .

تدل المقدمة على أن أبا الفرج الأصبهانى جمع فى هذا الكتاب ما حضره وأمكنه جمعه من الأغانى العربية قديمها وحديثها ، ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره ، وصانع لحنه ، وطريقته من إيقاعه ، وإصبعه التى ينسب إليها من طريقته ، واشتراك إن كان بين المغنين ، وقد يتخلل هذا كله شىء كثير من الجد والهزل والآثار والأخبار والسير والأشعار المتصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة وقصص الملوك فى الجاهلية والخلفاء فى الإسلام .

هذا بعض ما جاءت الإشارة إليه فى مقدمة كتاب الأغانى ولكن الكتاب يشتمل على تراجم بعض الشعراء ، وعلى وصف هيئاتهم وملابسهم ومآكلهم ومشاربهم فى بعض الأحيان ، وعلى أخبار العامة فى مقادير عقولها وتدليسها ولغتها ومعتقداتها وتسلطها على الخاصة ، وعلى الكتاتيب حيث وصف لنا أين تعلم الناس ، وكيف كان المسلمون يعاملون طلابهم ويكافئون النابغين منهم ، وكيف كانت حياة الطلاب فى الكتاتيب ، وعلى الملاهى كيف كان الناس يقضون لهوهم ، وما هى أجناس شرابهم وأنواع زينتهم وهيئات جواريهم ، وعلى دور الناس كيف كانت موائدهم وأوانيهم وفرشهم وثيابهم ، وعلى قصور الخلفاء كيف كان البناء فى الحجاز والشام والعراق وعلى أندية تلك العصور ومطاعمها

وخاناتها وقصاصها ومصوريها ، وعلى عادات المتقدمين فى أفراحهم وأحزانهم وتقاليدهم ، وعلى حريه المرأة وثقافتها ، وعلى حرية الناس وعبوديتهم ، وعلى لهو الخلفاء وتبذيرهم ، وعلى مواكب الحج وأمثال هذه الموضوعات .

هذا ما عالجه أبو الفرج الأصبهانى من الموضوعات فى كتاب الأغانى ، والثابت أن أبا الفرج لم يقتصر على جمع ما حضره وأمكنه جمعه من الأغانى العربية ، وإنما دخل على الخلفاء والعمال قصورهم فى الليل ، فوصف كل ما اتصل به علمه فى هذه القصور ، وكشف الغطاء عن أنماط من الحياة لولا معرفتنا إياها لفاتنا كثير من تأريخنا ، حتى رأينا تلك الحياة بأعيننا وسمعنا أخبارها بآذاننا ولمسنا آثارها بأيدينا .

٤ ــ فن أبى الفرج الأصبهانى

سلك أبو الفرج فى كتاب الأغانى مسالك المحدثين فقد كان ينشئ الأخبار بألفاظه ، وإذا لم تكن الأخبار من إنشائه نبه على ذلك ، وقد كان يحرص فى هذه الأخبار أشد الحرص على براءة الذمة فيها ، وكان ينقد بعض الرواة الذين نقل الأخبار عنهم : ينبه على أباطيلهم ويحقق أخباره وأحاديثه ورواياته ، ويجرى فى هذا التحقيق على أساليب شتى أتيت على ذكرها فى كتاب : « دراسة الأغانى »[1] والمهم فى هذا كله أن أبا الفرج الأصبهانى أحاط بمفردات اللغة فانتخب منها ما يناسب غايته ومذهبه فى كتابه ، فقد أحكم فقه اللغة بحيث لا يكاد يستعمل اللفظ إلا فى مواضعه ، فأول عنصر من عناصر لغته تفقهه فى اللغة ؛ أما العنصر الثانى فإنا نجده فى سهولة لغته ، فهو يستعمل من الألفاظ والتراكيب ما لا يزال استعماله شائعاً حتى فى العامة ، فكثيراً ما نجد فى الأغانى أشباه هذه التراكيب : « هجم الشتاء عليه . . . على بختى أنا . . . استر علينا . . . فإذا كان كتاب الأغانى خالداً فهو خالد لموضوعاته الجليلة وللغته التى خلقت لكل العصور .

لقد جارى أبو الفرج الأصبهانى عصره فى تطور اللغة ولم يجمد على حال

(١) ص ٥٩

من الأحوال فاشتق ألفاظاً جزلة المعانى ، من ذلك استعمال العرسيات فى بعض مواضع من كلامه ، فهذا اللفظ يدل على حالة اجتماعية خاصة لا يعبر عنها لفظ آخر ، إنه يدل على الأكل الذى يقدم فى الأعراس .

وهذه الحرية فى اللغة دفعته إلى حرية ثانية فى تسمية الأشياء بأسمائها ، فكثر فى كتاب الأغانى ما نسميه فى عصرنا الأدب المجرد ، وقد كان هذا الأدب المجرد كثيراً فى كتبنا القديمة .

هذه جملة من خصائص لغة أبى الفرج الأصبهانى فى كتاب الأغانى ، أما خصائص فنه فقد كان رأسها الوصف بكلمة واحدة بحيث يتم المعنى ، فهو يستطيع أن يصور حالة من حالات الإنسان بلفظ واحد ، من ذلك : « وأن تكون ضحكة للناس . . . وكان لبّاساً . . . وكان صيتاً . . . » فهو مقتصد فى التصوير ، وقد أوتى قدرة على أن يجعل بين الصفة وبين الموصوف صلة وثيقة ، فهو يستعمل الصفة التى تصلح للموصوف خاصة ولا تصلح لكل موصوف ، وقد نجد فى ألفاظه وصفاته تناسباً قويًّا بينها وبين معانيها وهذا سر العبقرية ، فإذا وصف حالة من حالات الغضب قال : « فتربّد وجهه وجحظت عيناه وهمّ بالوثوب » .

برع أبو الفرج فى تراجمه فإذا وصف رجلا من الرجال نطقت ألفاظه من صدق الوصف ، كما برع فى تصوير الحركات والجلسات ، ولم يبرع فى وصف الحالات المادية وحدها ، وإنما برع فى وصف الحالات النفسية .

أما لغته الشعرية فلم يلجأ فيها إلا إلى الصور التى تقع عليها العين من ذلك قوله : « فخفق كما يخفق الطائر . . . فاضطرب اضطراب العصفور . . . فخيل إلىّ أن الشجرة تنطق . . . »

هذا من جهة ومن جهة ثانية فإنه جعل لكل مقام مقالا ، وهذه القاعدة رأس البلاغة ، فهو لم يرو أخباره على وتيرة واحدة وإنما جعل لكل خبر مقاماً خاصًّا يروى ما يروى من الأخبار فيعطى كل معنى ما يستحقه من الألفاظ .

وإذا خرجنا من هذا الأفق إلى أفق أوسع وجدنا أبا الفرج الأصبهانى يجرى على هذه القواعد نفسها فى قصصه ورواياته .

هذه جملة من خصائص لغة أبى الفرج الأصبهانى وفنه فى كتاب الأغانى ، فأبرز صفة من صفات عبقريته إنما هى الطبع ، فإن هذه السنين الخمسين التى سلخها فى إنشاء كتاب الأغانى قد صقلت بيانه حتى أصبح أبو الفرج مطبوعاً على الكتابة لا يظهر على عبقريته أثر من آثار التكلف ، وإذا خلد كاتب لفطنته إلى روح الألفاظ وأسرارها ، ولصبه هذه الألفاظ فى قوالبها ، ولخفة لغته على القلوب والأفهام ، ولإرسال كلامه على سجيته دون شىء من التصنع واصفاً ما يذكره من الأشخاص والأشياء بحقائق الصفات ، وازناً كل صفة من هذه الصفات بموازينها دون شطط ولا سرف — إذا خلد كاتب لهذه الخصائص كلها فأبو الفرج الأصبهانى على رأس الخالدين .

تحليل قصة

عفو أمير (١)

ما هو موضوع النص الذى ندرسه؟ فإن أبا الفرج لا يعنون عادة موضوعاته.

فى أى نوع من الأنواع الأدبية عرض الموضوع ؟

فإذا كان الموضوع قد عرض فى قالب قصة فما هى خصائص هذه القصه ؟

هل كملت القصة ؟ وما معنى كمالها ؟ هل يشعر القارئ بعد الفراغ منها بحاجة إلى معرفة أشياء ثانية ؟

فإذا كانت القصة قد كملت فما هى أسباب هذا الكمال ؟ هل عرضت حوادثها فى صورة محسوسة ؟ وهل فسرت هذه الحوادث ؟

ما هو نصيب هذه القصة من الوصف ؟

هل وصف الجيش ؟

هل وصف الحصن إلى آخر ذلك . . .

ما هو نصيبها من الصور ؟

هل تحتمل القصة الصغيرة صوراً كاملة طويلة ؟ هل تشتمل على صور قصيرة ؟

ما هى هذه الصور ؟

هل يمكن استنباط صور أبطال القصة من القصة نفسها ؟

١ — كلام الحصنى .

٢ — كلام الأمير .

* * *

كيف رتبت هذه القصة ؟

١ — العرض :

---

(١) طالع القصة فى الصفحة ٩٦ من باب المنتخبات .

هل بسطت فى العرض أبطال القصة والظروف التى تمت فى خلالها الحوادث ؟

٢ ــ العقدة :

ما هى الحوادث فى هذه العقدة ؟

٣ ــ الخاتمة :

هل الخاتمة قصيرة أو هى طويلة ؟

٤ ــ لذة هذه القصة :

هل يشعر القارئ بلذتها من أول الأمر أو اللذة فيها كانت على سبيل التدريج ؟

* * *

لغة هذه القصة وأسلوبها :

ما هى خصائص هذه اللغة ؟ هل هى محسوسة أو مجردة ؟ ما هى طبائع الألفاظ المجردة ؟ هل تجد تطوراً فى معانى بعض ألفاظ القصة بالنسبة إلى عصرنا ؟

أسلوبها :

هل العبارات مقطعة فيها ؟

ماهى خصائص العبارات المقطعة فى القصة ؟

الإيجاز } فى القصة
الحوار }

* * *

هذا ما نحاول كشفه على سبيل الإيجاز فى تفسيرنا لقطعة من كتاب الأغانى .

لا يعنون أبو الفرج موضوعاته عادة ، فالنص الذى ندرسه ونفسره قد يمكن أن يكون عنوانه « عفو أمير » ، وقد يمكن أن نجعل هذا العنوان : « المروءة » لأن فى معاملة عبد الله بن طاهر للحصنى أخلاقاً رفيعة تشتمل على شىء من الإنسانية ، ومن جملة معانى المروءة : الإنسانية ، وهى من الألفاظ العامة التى تختلف معانيها على اختلاف الأذهان التى تعيش فيها أو على اختلاف المواضع التى تستعمل فيها .

أفرغ أبو الفرج عفو هذا الأمير أو مروءته فى قالب قصة ، قد تكون صادقة أو قد يحتمل صدقها ، وقد توخّى فى رواية قصته وصف مخالقة عبد الله ابن طاهر لمحمد بن يزيد الأموى الحصنى ، فالقصة من أولها إلى آخرها محورها هذه المخالقة ، فكأن أبا الفرج يأخذ بيد القارئ من بدء القصة فينتقل به بين مواطنها فلا يزال به . حتى ينبهه على كرم أخلاق عبد الله بن طاهر وعلى رقة شعوره وسعة حلمه وامتداد كرمه .

لا شك فى أن هذه القصة قصيرة ، ولكنها كاملة على الرغم من قصرها ، فإن القارئ لا يتردد فى موضع من مواضعها ، ولا يستوضح صاحبها أمراً من الأمور ، وإذا كان القارئ لا يتردد فيها ولا يستفهم فهذا يرجع إلى أن حوادثها قد عرضت فى أوضح معرض ، وكل حادثة منها مربوطة بعلتها وسببها .

فلماذا باعد الحصنى بناته وحرمه واستسلم بنفسه وبكل ما يملك ؟ لأنه من أهل بيت قد أسرع القتل فيهم ، وله بمن مضى أسوة ،ولأنه يثق بأن الرجل إذا قتله وأخذ ماله شفى غيظه ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم ولا له فيهن أرب .

فهذا النمط من التسلسل المنطقى فى القصة قد جعل فيها وضوحاً يغنى عن كل استفهام واستيضاح .

أما نصيب القصة من الوصف فيكاد يكون لا أثر له ، فلا نجد فيها وصفاً للجيش أو للحصن أو لغير ذلك كوصف المنزل والأكل والشرب .

وقد يكون نصيبها من الصور أوفر ، على أن القصة القصيرة لا تحتمل صوراً كاملة ، وهذه طائفة من صورها :

١ — « فرأى بابه مفتوحاً ، ورآه جالساً مسترسلا » . فهذا الاسترسال خط من خطوط صورة الحصنى ، على أن معنى هذه المادة غير واضح ، لأن الاسترسال فيه معنى الانبساط والاستئناس ، وما هو انبساط الحصنى فى مثل حالته أم ما هو استئناسه ؟

٢ — وهذه صورة ثانية :

« وعلمت أنى أخطأت خطيئة حمانى عليها نزق الشباب وغرة الحداثة » .

فهذا النزق وهذه الغرّة يوضحان لنا صورة الحصنى لما أفرط فى سب عبد الله ابن طاهر ، وتجاوز الحد فى قبح الرد .

٣ — وهذه صورة ثالثة :

« فوالله ما اتقاه عبد الله إلا بدموعه تجرى على لحيته » . فهذه الدموع التى تجرى على اللحية إنما هى مظهر من مظاهر رقة الشعور .

على أنه لا مجال فى قصة صغيرة مثل هذه القصة إلى التعمق فى التصوير ، سواء أكان صاحبها يصور الهيئات أم كان يصور الأخلاق .

غير أننا على الرغم من اختصار الصور فى القصة نستطيع أن نستنبط صور طائفة من أبطالها من كلامهم نفسه .

فمن كلام الحصنى للأمير عبد الله بن طاهر :

« إن ما قلت لم يذهب علىّ ، ولكنى تأملت أمرى وعلمت أنى أخطأت خطيئة حملنى عليها نزق الشباب وغرة الحداثة » .

فإذا تأملنا هذا الكلام وجدنا فيه صورة رجل ندم على ما بدر منه ، ثم إذا تأملنا الكلام الذى بعده وهذا هو :

« فإنا أهلُ بيت قد أسرع القتل فينا ولى بمن مضى أسوة » . . . وجدنا فيه صورة رجل رابط الجأش ، قد أسلم أمره إلى الله تعالى وانتظر يومه غير هيّاب ولا وجل . . .

وكذلك إذا انتقلنا إلى كلام الأمير عبد الله بن طاهر فقد نجد فى قوله للحصنى :

« وقد أمّن الله تعالى روعتك ، وحقن دمك ، وصان حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك » .

صورة رجل كريم الخلق ، يحسن إلى من أساء إليه ، ويبالغ فى الإحسان . وقد نرى هذه المبالغة فى قوله :

« وما تعجلت إليك وحدى إلا لتأمن من قبل هجوم الجيش ، ولئلا يخالط عفوى عنك روعة تلحقك » . . .

فإذا كانت القصة التى نفسرّها قليلة الصور فقد نستخرج من بعض كلام

أبطالها طائفة من هذه الصور فيها وصف لأخلاقهم وطبائعهم .

أما وقد عرفنا هذا كله فقد لزمنا أن نعرف ترتيب القصة . . .

رتبت هذه القصة ترتيباً متقناً ، فقد اشتمل عرضها الوجيز على ذكر أبطال القصة وعلى ذكر الظروف التي ستتم فيها الحوادث . . .

بدأ أبو الفرج قصته بالإشارة إلى ما وقع فى الماضى بين عبد الله بن طاهر وبين محمد بن يزيد الأموى ، فقد قال الأول شعراً فخر فيه بمآثر أبيه وأهله ، وفخر بقتلهم الأمين ؛ وعارضه الثانى فأفرط فى السبّ وتجاوز الحد فى قبح الرد ، وتوسط بين القوم وبين بنى هاشم فأربى فى التوسط والتعصب .

فكان لا بدُ من هذه الإشارة الوجيزة فى توضيح السبب الذى من أجله هرب الحصنى من عبد الله لما ولى مصر ورد إليه تدبير الشام . . .

ولما أشار هذه الإشارة أخذ يوضح بعض ظروف العمل ، فوصف ما فعله الحصنى فقال :

« فلما ولى عبد الله مصر وردّ إليه تدبير أمر الشام ، علم الحصنى أنه لا يفلت منه إن هرب ، ولا ينجو من يده حيث حل ، فثبت فى موضعه ، وأحرز حرمه ، وترك أمواله ودوابه وكل ما كان يملكه فى موضعه ، وفتح باب حصنه وجلس عليه . . . »

فى هذا العرض البسيط وقفنا على بطلى القصة وعلى ظروف حوادثها . ولا شك فى أن هذه الحوادث قد اشتبكت بعد هذا العرض ، فكان فى اشتباكها بدء العقدة .

أيقتل الأمير عبد الله بن طاهر محمد بن يزيد أم يعفو عنه ؟ ! هذا هو السؤال الذى يلقيه القارئ على نفسه ، هذا هو الأمر الذى يشغل بال القارئ بعد أن عرف ما عرف مما كان بين الرجلين .

فى هذا الموطن من القصة نقف حائرين مضطربين لا نعرف عزم الأمير ولا الخاطر الذى خطر بباله . واللذة فى هذه الحيرة وفى هذا الاضطراب ، على شرط واحد، أن لا يطول بنا الأمر . وقد تمتد بنا الحيرة من عند قول أبى الفرج :

« فلما شارفنا بلده ، وكنا على أن نصبّحه . . . »

وتنتهى بنا عند قول ابن طاهر للحصنى :

« أتعرفنى ؟ قال : لا والله ، قال أنا عبد الله بن طاهر . . . »

أتنتهى الحيرة فى هذا المقطع ؟ كلا ، لا تنتهى الحيرة فيه ، وإنما تصير إلى مفاجأة ، فإنا نريد أن نعرف بعد قوله : « أنا عبد الله بن طاهر » ، ماذا فعل . . .

ماذا فعل الأمير فى هذا الموقف ؟ ماذا فعل الأمير فى موقف كان فيه الحصنى بين الحياة والموت ؟ هذا أروع أجزاء القصة ، هذا هو الجزء من القطعة الذى تنكشف فيه حيرة القارئ ، ويهدأ فيه اضطرابه .

لم يشأ عبد الله بن طاهر بعد أن قال للحصنى : « أنا عبد الله بن طاهر » أن يقف عند هذا الكلام حرصاً على أمن الحصنى ، وتفادياً من اضطرابه فقال له :

« أمن الله تعالى روعتك ، وحقن دمك ، وصان حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك » . فلما قال له هذا القول انحلت عقدة القصة ، وأخذ القارئ يتطلع إلى خاتمتها ، وقد انكشفت أخلاق عبد الله بن طاهر فى هذه الخاتمة الانكشاف كله ، وانكشف كرم هذه الأخلاق ، وأول مظهر من مظاهر هذا الكرم قوله :

« وما تعجلت إليك وحدى إلا لتأمن من قبل هجوم الجيش ، ولئلا يخالط عفوى عنك روعة تلحقك » .

وما وسع الحصنى بعد أن سمع هذا الكلام اللين إلا البكاء وإلا القيام وتقبيل رأس ابن طاهر .

لقد كان أبو الفرج يستطيع أن ينهى قصته فى آخر هذا الكلام الطيب الذى قاله عبد الله بن طاهر ، ولو فعل لتمت القصة ، ولكنه أتبع هذا الكلام بعتاب وبطعام وشراب ، ثم بإكرام ؛ فكأنه أراد من مبدأ القصة حتى منتهاها أن يأتى فى كل جزء من أجزائها بدليل على كرم أخلاق عبد الله بن طاهر .

ولا شك فى أن أبا الفرج قد روى قصته على شكل مستميل ، فإنه لم يفاجئ القارئ مفاجأة بعفو الأمير ومروءته من أول القصة ، وإنما استدرجه إلى ذلك استدراجاً حتى يبقى ميله إلى معرفة الخاتمة معلقاً .

لا بأس بعد هذا كله بأن ننظر فى خصائص لغه هذه القصة وأسلوبها .

تصور القطعة التى ندرسها أمراً روحانياً وهو العفو أو المروءة ، ولذلك نجد فيها بعض الألفاظ المجرّدة مثل : التدبير ، ونزق الشباب ، وغرة الحداثة ، أو مثل شفى غيظه ، وأمن روعتك ، وحقن دمك ، وغير ذلك ؛ فالألفاظ المحسوسة فيها قليلة جداً ، وذلك سببه أن الوصف فيها قليل ، والوصف هو الذى يستلزم الألفاظ المحسوسة التى تصور الأشياء فى حقائق صورها .

وقد نجد بين الألفاظ المجردة فى القطعة ما تحول معناه على الأيام مثل لفظ التدبير ، فإذا رجعنا إلى كتب اللغة للبحث عن معنى التدبير وجدنا فيها ما يلى : « التدبير ، النظر فى عاقبة الأمر كالتدبر » ، ولكن هذه المادة فى العبارة التى استعملت فيها لها معنى يختلف عن معنى كتب اللغة ، إن معناها الحكم أو السياسة .من هذا يتبين لنا أن حياة الألفاظ فى مواضع استعمالها ، فإذا تقيدنا بمعنى التدبير المذكور فى كتب اللغة فنكاد لا نفهم معنى هذه المادة فى موضع استعمالها فى القصة ، فما معنى : « وردّ إليه النظر فى عاقبة أمر الشام» ليس فى هذا التفسير شىء من الخطأ ، لأن بين النظر فى عاقبة الأمر وبين سياسة هذا الأمر بعض العلة ، فمن جملة أمور السياسة النظر فى العواقب .

فهذا اللفظ « التدبير » ليس له حياة مستقلة ، وإنما استقلاله فى الموضع الذى يستعمل فيه ، ومعناه فى موضعه فى القصة « الحكم أو السياسة » ، وهكذا كانوا يفهمون هذه المادة فى عصر أبى الفرج ، فإنا نجد فى شعر المتنبى فى كافور : « يدبر الملك من مصر إلى عدن » ، أى يسوس الملك .

وكما تختلف معانى الألفاظ على اختلاف مواضع استعمالها ، فكذلك تختلف على اختلاف الأذهان التى تعيش فيها ، فالتدبير فى كل ذهن له معنى خاص ، فإذا كان فلان ضيق العيشة وقلنا فيه : إنه يدبر حاله ، أطلقنا على التدبير فى هذا المكان معنى خاصاً فكأنا قلنا : إنه بما أوتيه من العقل يستطيع أن يتصرف فى عيشته حتى لا يظهر عليه أثر الضيق .

وكذلك تختلف معانى الألفاظ على اختلاف العصور ، فلا نقول فى هذا العصر : « وردّ إليه تدبير أمر الشام »، وإنما نقول : « وردّت إليه سياسة

الشام ، أو وردّ إليه حكم الشام ، أو غير ذلك .

ولا شك فى أن اختلاف المعانى فى الألفاظ المجرّدة يجعل لهذه الألفاظ بعض الغموض ، وقد يقل الغموض عادة إذا لجأ الكاتب إلى استعارات أو تشبيهات أو مجازات تجعل الأمور محسوسة .

لم يلجأ أبو الفرج فى قصته إلى اللغة الشعرية ، وإنما لجأ إلى تقطيع عباراته ، من هذا القبيل قوله : « لا يفلت منه إن هرب ، ولا ينجو من يده حيث حل . . فثبت فى موضعه وأحرز حرمه . . . » أو قوله : « أمن الله روعتك ، وحقن دمك ، وصان حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك . . . »

والأسلوب المقطع هو الذى يصلح للقصص الصغيرة أكثر من غيره ، إن فيه شيئاً من الخفة والسرعة لا نراه فى العبارات المديدة التى يضم بعضها إلى بعض ويتصل بعضها ببعض .

على أنا نجد فى هذا الأسلوب المقطع تسلسلا فى الأفكار متقناً ، وذلك فى قول عبد الله بن طاهر : « وقد أمن الله روعتك ، وحقن دمك ، وصان حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك . . . » فإذا دققنا فى كل عبارة من هذه العبارات وجدنا فيها ترتيباً روحانياً غريباً .

لما ثبت الحصنى فى موضعه ، وأحرز حرمه ، وترك أمواله ، ودوابه وكل ما كان يملكه فى موضعه ، جلس واسترسل ، هكذا صوره أبو الفرج ؛ فلما نزل عنده الأمير عبد الله بن طاهر أحبُ أن يخرجه من حالته التى هو فيها إلى حال فيها الطمأنينة ، فقال له قبل كل شىء : « أمن الله روعتك » ، فخف قلق الحصنى ، ثم قال له : « وحقن دمك » ، فأطمأن إلى حياته ، ثم قال له : « وصان حرمك » فوثق ببقاء أهله ، ثم قال له : « وحرس نعمتك » فلم يخف على ماله ، ثم قال له : « وعفا عن ذنبك » ، فتحقق عنده أن العقوبة قد زالت وهكذا نجد أن الطمأنينة قد عادت إليه بحسب حالاته النفسية التى كانت تقلقه وتشغل باله ، فلو قدمت عبارة من هذه العبارات على عبارة لاختل الترتيب .

ولا ينبغى لنا أن ننسى أن الإيجاز فى بعض مواضع هذه القصة والحوار قد زادا فى نفخ الروح فيها ، فالقصة على الإجمال منسجمة ، متناسقة وهذا سر محاسنها .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار أبي الفرج الأصبهاني

١ ـ أبو الفرج الأصبهاني الشاعر

ا ـ الشاعر الوجداني

حكاية حال

انحدر أبو الفرج يوماً إلى البصرة وكان غريباً لا يعرف أحداً من أهلها إلا من قد سمع بذكره فاستأجر بيتاً في خان، ثم لما خرج من البصرة كتب هذه الأبيات على حائط البيت الذي يسكنه[١] :

الحمدُ لِلهِ على ما أرى ... من صنعتِي من بين هذا الورَى

أصارنِي الدهر إلى حالة ... يعدَمُ فيها الضّيفُ عندِي القِرى[٢]

بدّلتُ من بعد الغنى حاجةً ... إلى كلاب يلبَسونَ الفِرا

أصبحَ أُدْمُ السُّوق لِي ما كلاً ... وصار خبزُ البيتِ خبزَ الشِّرا

وبعد مِلْكِي منزلاً مبهجاً ... سكنتُ بيتاً من بيوتِ الكِرى[٣]

فكيف ألقَى لاهياً ضاحكاً ... وكيف أحظَى بلذيذِ الكَرى

سبحانَ من يعلم ما خلفنا ... وبين أيدينا وتحتَ الثَّرى

والحمدُ للهِ على ما أرى ... وانقطعَ الخطْبُ وزالَ المِرا[٤]

---

(١) تجد ما نروى عنه من شعر في « معجم الأدباء » ج ١٣ و « الأغاني » ج ١

(٢) القرى : طعام الضيف .

(٣) الكرى : بكسر الكاف الإيجار وبفتحها ، : النوم .

(٤) المرا : مقصور المراء : وهو الجدل والنزاع .

ب — الشاعر الوصاف

رثاء ديك

رثى أبو الفرج الأصبهانى ديكاً رباه فى منزله ، فنجد فى هذا الرثاء شاعراً عينه شديدة الانتباه فى المعاينة ، وفكره بعيد التعمق ، يعرف كيف يصور وكيف ينظر إلى الأشياء . صور ألوان الديك ومشيته وبعض أقسامه وصوته وطيرانه فالصورة تكاد تكون كاملة ، اشتركت فى تكيها عين أبى الفرج وأذنه وفمه ، اشتملت هذه الصورة على كثير من التنسيق والترتيب ، فلم تدخل صورة الديك بعضها فى بعض ، كما اشتملت لغتها على الوضوح والألفاظ الناطقة والصفات المحسوسة والتشبيهات الخصبة :

لهفى عليك أبا النذير لوَ اَنَّه ... دفع المنايا عنك لَهْفُ شفيقِ

وعلى شمائلك اللواتى ما سمت ... حتى ذَوَتْ من بعد حسن سُموقِ (١)

لمّا بَقِعتَ وصرت عِلْق مَضَنَّةٍ ... ونشأتَ نشْأَ المقبلِ الموموقِ (٢)

وتكاملت جملُ الجمال بأسرها ... لك من جليلٍ واضحٍ ودقيقِ

وكُسيتَ كالطاووسِ ريشاً لامعاً ... متلألئاً ذا رونقٍ وبريقِ

مِن حُمْرةٍ فى صُفرةٍ فى خُضْرةٍ ... تخييلُها يغنى عن التحقيقِ

عَرَضٌ يجلّ عن القياس وجوهرٌ ... لطفت معانيه عن التدقيقِ

وخطرت ملتحفاً ببُرْدٍ حَبَّرَتْ ... منه بديع الوشى كفُّ أنيقِ (٣)

كالجُلَّنَارةِ أو صفاء عقيقةٍ ... أو لمع نارٍ أو وميضِ بروقِ (٤)

أو قهوةٍ تختالُ فى بلُّورةٍ ... بتألق الترويق والتصفيقِ (٥)

---

(١) سمق النبات : علا وطال .

(٢) بقع من باب خرج بقعاً وهو فى الطير سواد وبياض . العلق : النفيس . مضنة : يضن به . الموموق : المحبوب .

(٣) التحبير : التحسين .

(٤) الجلنار : زهر الرمان . العقيق : خرز أحمر .

(٥) القهوة : الخمر .

وكأنّ سالفتيك تِبْرٌ سائل — وعلى المفارق منك تاجُ عقيقِ (١)

وكأنّ مجرى الصوت منك إذا نبت — وجفت عن الأسماع بُحٌّ حلوقِ

نايٌ دقيقٌ ناعمٌ قرنتْ به — نغمٌ مؤلفةٌ من الموسيقِي

يزقو ويصفق بالجناح كمنتشٍ — وصلت يداه النقر بالتصفيقِ (٢)

ويميس ممتطياً لسبع دجائجٍ — مثل المهارى أحدقت بفنيقِ (٣)

فيميرنا منهنّ بيضاً دائماً — رِزْقاً هنيئاً ليس بالممحوقِ

فيه بدائع صنعةٍ ولطائفٍ — أُتقنّ بالتهذيب والتدقيقِ

خلقانِ مائيانِ ما اختلطا على — شكلٍ ومؤتلف المزاج دقيقِ

صُنْعٌ يدلّ على حقيقة صانعٍ — للخلق طرًّا ليس بالمخلوقِ

فبياضها ورق وتِبْرٌ محّها — في حُقّ عاج بُطّنت بدبيقي (٤)

يغدو علينا مَنْ طهاه بعُجْبه — ويروح بالمشويّ والمسلوقِ

نِعم لعمرك لو تدوم هنيئة — هل دام رِزْق لامرئٍ مرزوقِ

أبكي إذا أبصرتُ ربعك موحشاً — بتحننٍ وتأسّفٍ وشهيقِ

ويزيدني جزعاً لفقدك صادحٌ — في منزلٍ دانٍ إليّ لصيقِ

قرع الفؤاد وقد زقا فكأنه — نادى ببين أو نعيّ شقيقِ

---

(١) السالفة : مقدم العنق .

(٢) زقا يزقو : صاح .

(٣) المهارى : إبل منسوبة إلى مهرة بن حيدان. الفنيق : الفحل المكرم لا يؤذى ولا يركب .

(٤) الورق : الدراهم المضروبة وكنى به هنا عن الفضة . المح : صفرة البيض .

دبيقي : من دبيق ، بلدة بمصر تنسب إليها الثياب .

فتأسّفى أبداً عليك مواصل ... بسواد ليل أو بياض شروقِ
وإذا أفاق ذوو المصائب سَلْوة ... وتصبّروا أمسيتُ غيرَ مُفيقِ
صبراً لفقدك لا قِلًى لك بل كما ... صبر الأسيرُ لشدّةٍ ومضيقِ (١)
لا تبعُدنّ وإن نأت بك نيّة ... فى منزل نائى المحلِّ سحيقِ (٢)

وصف الفأر والهر

لم يعن أبو الفرج بمراقبة الناس وحدهم وتتبع أخبارهم ، وإنما عنى بمراقبة الحيوان أيضاً ولا سيما الحيوان الذى كان يعيش فى داره ، فهو يصف هذا الحيوان وصفاً إذا جاء فى عصرنا هذا مصور ووقف عليه استطاع أن يعيد صورته بريشته ، وهذه براعة أبى الفرج الأصبهانى فى دقة التصوير :

يا لُحذبِ الظهورِ قُصْعِ الرّقابِ ... لدِقاقِ الأنيـابِ والأذنابِ
خلقتْ للفساد مذ خلق الخلـ ... ـق وللعيثِ والأذى والخرابِ
ناقبات فى الأرضِ والسّقفِ والحيـ ... ـطان نقباً أعيا على النقّابِ
آكلات كلّ المآكل لا تأ ... منّها شاربات كل الشرابِ
آلفات قرض الثياب وقد يعـ ... ـدل قرضَ القلوب قرضُ الثيابِ
زال همّى منهنّ أزرقُ تركىُّ السبالين أغمرُ الجلبابِ
ليث غابٍ خَلقاً وخُلقاً فمن لا ... ح لعينيه خاله ليثَ غابِ
ناصب طرفَه إزاء الزوايا ... وإزاء السّقوف والأبوابِ
ينتضى الظفر حين يظفر للصّيْـ ... ـد وإلا فظفره فى قِرابِ

---

(١) القلى : البغض .
(٢) النية : الوجه الذى يذهب فيه .

لا يرى أخبثيـــه عين ولا يعـ ... ـلم ما جُنتاه غير التراب
قرطقوه وشنّفوه وحلّو ... ه أخيراً وأوّلا بالخضاب
فهو طوراً يمشى بحلى عروسٍ ... وهو طوراً يخطو على عُنّاب
حبذا ذاك صاحباً هو فى الصحـ ... ـبة أوفى من أكثر الأصحاب

ج – الشاعر المداح

ميلاد المشترى

رزق المهلبى مولوداً من سرية رومية فقال أبو الفرج يهنئه :

أسعِدْ بمولودٍ أتاكَ مباركاً ... كالبدرِ أشرقَ جنحَ ليلٍ مقمرِ
سعدٌ لوقتِ سعادةٍ جاءت به ... أمٌّ حَصانٌ من بناتِ الأصفرِ (١)
متبجبحٌ فى ذروتىْ شرفِ العلا ... بين المهلَّبِ منتماهُ وقيصرِ
شمسُ الضُّحَى قرنتْ إلى بدرِ الدُّجى ... حتى إذا اجتمعا أتتْ بالمشترى (٢)

عيد الفطر

وفى عيد من الأعياد يهنىء أبو الفرج الوزير المهلبى وينشده هذه القصيدة :

إذا ما علا فى الصدرِ والنهىِ والأمرِ ... وبثَّهما فى النفعِ منه وفى الضرِّ
وأجرى ظُبَا أقلامهِ وتدفّقتْ ... بديهتهُ كالمستمدِّ من البحرِ
رأيتَ نظامَ الدرِّ فى نظمِ قولهِ ... ومنثورَه الرقراقَ فى ذلك النثرِ

---

(١) حصان : عفيفة . بنات الأصفر : بنات الروم .

(٢) المشترى : كوكب .

ويقتضبُ المعنى الكثيرَ بلفظةٍ ويأتي بما تحوي الطواميرُ في سطرِ[١]
أيا غرّةَ الدهرِ ائتنفْ غرّةَ الشهرِ وقابلْ هلالَ الفطرِ في ليلة الفطرِ
بأيمنِ إقبالٍ وأسعدِ طائرٍ وأفضلِ ما ترجوه من أفسحِ العمرِ
مضى عنك شهرُ الصّوم يشهدُ صادقاً بطهرِكَ فيه واجتنابك للوِزْرِ
فأكرمْ بما خطَّ الحفيظان[٢] منهما وأثنى به المُثْني وأطرى به المُطرِي
وزكّتكَ أوراقُ المصاحفِ وانتهى إلى الله منها طولُ درسك والذكرِ
وقبضُك كفَّ البطشِ عن كل مجرمٍ وبطشُكَها بالعرفِ والخيرِ والبرِّ
وقد جاءَ شوّالُ فشالتْ نعامةُ الـصّيامِ وأُبْدِلنا النّعيمَ من الضُّرِّ[٣]
وضجّتْ حبيسُ الدّنِّ من طولِ حبسِها ولامتْ على طولِ التجنّبِ والهجرِ
وأبرَزَها من قعرِ أسودَ مظلمٍ كإشراقِ بدرٍ مشرقُ اللون كالبدرِ
إذا ضمّها والوردَ فوهُ وكفُّهُ فلا فرقَ بين اللونِ والطعمِ والنَّشرِ
وتحسبهُ إذ سلسلَ الكأسَ ناظماً على الكوكبِ الدُّرّيِّ سِمْطاً من الدُّرِّ

---

(١) الطوامير : الصحائف .

(٢) الحفيظان : الملكان .

(٣) شالت نعامة الرجل : مات .

د — الشاعر الهجاء

يا أرض ميدى

لما ولى الوزارة أبو عبد الله البريدى فى زمن الراضى بالله قال أبو الفرج فى ذلك قصيدة طويلة يهجو فيها أبا عبد الله وهذا مطلعها :

يا سماءُ اسقطى ويا أرضُ ميدى — قد تولّى الوزارةَ ابنُ البريدى (١)

جلّ خطبٌ وحلّ أمرٌ عضالٌ — وبلاءٌ أشابَ رأسَ الوليدِ

هُدَّ ركنُ الإسلام وانهتك الملـ — ـكُ ومُحِيَتْ آثاره فهْو مُودى (٢)

أخلقتْ بهجةُ الزّمانِ كما أنـ — ـهجَ طولُ اللباسِ وشىَ البُرودِ (٣)

أنا الملوم

وله فى الهجاء هذان البيتان قالها فى أبى محمد المهلبى مع ما كان يخصه به من جميل الرعاية والإكرام :

أبعينِ مفتقرٍ إليكَ رأيتنى — بعد الغِنى فرميتَ بى من حالقِ (٤)

لستَ الملومَ أنا الملومُ لأننى — أمّلتُ للإحسانِ غيرَ الخالقِ (٥)

---

(١) ميدى : اضطربى وميلى .

(٢) يستقيم وزن الشطر الثانى بإسكان الحاء من محيت . مودى : هالك .

(٣) أخلق وأنهج : بلى وأبلى .

(٤) الحالق المكان المرتفع .

(٥) وفى رواية أخرى ، أنزلت حاجاتى بغير الخالق .

خيبة

لما كان أبو الفرج كاتباً لركن الدولة حظياً عنده توقع أن يكرمه الرئيس أبو الفضل بن العميد ويبجله فخاب ظنه فقال يهجوه :

مالُكَ موفورٌ فما باله أكسبكَ التّيهَ على المعدمِ (١)

ولمْ إذا جئتَ نهضنا وإن جئنا تطاولتَ ولم تتمِمِ

وإن خرجنا لم تقلْ مثل ما نقولُ قدِّم طِرْفه قدِّمِ (٢)

إن كنتَ ذا علمٍ فمن ذا الذى مثل الذى تعلمُ لم يعلمِ

ولستَ فى الغاربِ من دولةٍ ونحن من دونك فى المَنْسِمِ (٣)

وقد وَلينا وعُزلنا كما أنت فلم نصغُرْ ولم تعظمِ

تكافأت أحوالنا كلها فصِلْ على الإنصاف أو فاصْرمِ (٤)

---

(١) المعدم : الفقير .

(٢) الطرف : الجواد .

(٣) الغارب : الكاهل وأعلى كل شيء ومنه غوارب الماء أى أعالى موجه . والمنسم للإبل هو كالظفر للإنسان أو هو طرف خف البعير والنعامة والفيل ونحرها.

(٤) اصدم : اقطع واهجر .

٢ ــ أبو الفرج الأصبهانى الناثر

ا ــ المؤرخ

إسلام جبلة بن الأيهم

تتنازع فى هذا النص فكرتان : فكرة حرمة الدين وفكرة عز الملك ، خليفة يرى أن ملكاً من ملوك آل جفنة هشم أنف رجل من المسلمين فى موسم الحج فلا يستطيع الإغضاء على هذا الأمر ، لأن الإسلام جمع الملوك والسوقة ، وملك يرى أن رجلا من السوقة تعمد حل إزاره أمام أصحابه والمسلمين فلا يستطيع السكوت عن هذه الإهانة ، وكل فكرة تدل على مقدار تعلق صاحبها بالدفاع عنها :

لما أسلمَ جبلةُ بن الأيهم الغسَّانى ، وكان من ملوك آل جفنة ، كتب إلى عمر رضى الله عنه يستأذنه فى القدوم عليه ، فأذن له عمر ، فخرج إليه فى خمسمائة من أهل بيته من عكّ وغسّان ، حتى إذا كان على مرحلتين كتب إلى عمر يعلمه بقدومه ، فسرّ عمر رضوان الله عليه ، وأمر الناس باستقباله ، و بعث إليه بأنزال[١] وأمر جبلة مائتى رجل من أصحابه فلبسوا السلاحَ وَالحديد وركبوا الخيول معقودةً أذنابها ، وألبسوها قلائد الذهب والفضة ، ولبس جبلة تاجه ، وفيه قُرطاَ مارية ، وهى جدّته ، ودخل المدينة فلم يبق بها بكر ولا عانس[٢] ، إلا تبرّجت وخرجت تنظر إليه وإلى زيّه ، فلما انتهى إلى عمر رحّب به وألطفه[٣] وأدنى مجلسه . ثم أراد عمر الحجّ فخرج معه جبلة ، فبينما هو يطوف بالبيت ، وكان مشهوداً بالموسم ، إذ وطئ إزاره رجلٌ من بنى فزارة فانحلّ ،

(١) الأنزال : جمع نزل وهو ما هيء للضيف أن ينزل عليه .

(٢) عنست الجارية : طال مكثها فى أهلها بعد إدراكها حتى خرجت من عداد الأبكار ولم تتزوج .

(٣) ألطفه بكذا : بره .

فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزارى ، فاستعدى[١] عليه عمر رضوان الله عليه ، فبعث إلى جبلة فأتاه ، فقال : ما هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إنه تعمّد حلّ إزارى ، ولولا حرمةُ الكعبه لضربت بين عينيه بالسيف ، فقال له عمر : قد أقررت ، فإمّا أن ترضى الرجل وإمّا أن أُقيده[٢] منك . قال جبلة : ماذا تصنع بى ؟ قال : آمر بهشم أنفك كما فعلت ، قال : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ؟ ! قال : إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشىء إلا بالتقى والعافية . قال جبلة : قد ظننتُ يا أمير المؤمنين أنى أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية . قال عمر : دع عنك هـذا ، فإنك إن لم ترض الرجل أقدته منك ، قال : إذاً أتنصّر ، قال : إن تنصّرت ضربت عنقك ، لأنك قد أسلمت ، فإن ارتددت قتلتك . فلما رأى جبلة الصدق من عمر قال : أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه . وقد اجتمع بباب عمر من حىّ هذا وحىّ هذا خلقٌ كثير ، حتى كادت تكون بينهم فتنة . فلما أمسوا أذن له عمر فى الانصراف ، حتى إذا نام الناس وهدؤوا حمل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام ، فأصبحت مكة وهى منهم بلاقع[٣] ، فلما انتهى إلى الشام تحمل فى خمسمائة رجل من قومه ، حتى أتى القسطنطينية فدخل إلى هِرقل فتنصّر هو وقومه ، فسرّ هرقل بذلك جدًّا ، وظنّ أنه فتحٌ من الفتوح عظيم وأقطعه حيث شاء ، وأجرى عليه من النزُل ما شاء ، وجعله من محدّثيه وسمّاره[٤] .

---

(١) استعداه : استغاثه واستعانه واستنصره .

(٢) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

(٣) البلاقع : جمع البلقع وهو الأرض القفر .

(٤) « الأغانى » ج ١٤ ص ٤ .

عيسى بن زيد فى خشونة حياته

لو نطق كلام من ذات نفسه لنطق الكلام الذى اشتمل عليه هذا الخبر . إن عيسى بن زيد بن على من الطالبيين الذين خافوا السلطان وهربوا منه . فوصف أبو الفرج الأصبهانى فى هذه القطعة هيئته وتقواه وعيشته وصفاً نكاد نرى فيه عيسى بن زيد نفسه يذعر من ابن أخيه كما يذعر الوحش . فلو صور الصبر على خشونة الحياة لكان عيسى بن زيد صورته .

حدّثنا أحمد بن محمد بن سعيد ، على سبيل المذاكرة فحفظته عنه ، لم أكتبه من لفظه ، والحديث يزيد وينقص والمعنى واحد ، قال : حدّثنى محمد بن المنصور المرادى ، قال : قال يحيى بن الحسين بن زيد :

قلت لأبى : يا أبه ، إنى أشتهى أن أرى عمى عيسى بن زيد ، فإنه يقبح بمثلى أن لا يلقى مثله من أشياخه ، فدافعنى عن ذلك مدة وقال : إن هذا أمر يثقل عليه ، وأخشى أن ينتقل عن منزله كراهية للقائك إيّاه فتزعجه ، فلم أزل به أداريه وألطف به حتى طابت نفسه لى بذلك ، فجهزنى إلى الكوفة ، وقال لى : إذا صرت إليها فاسأل من دور بنى حىّ ، فإذا دللت عليها فاقصدها فى السكة الفلانية وسترى فى وسط السكة دارًا لها باب صفته كذا وكذا ، فاعرفه واجلس بعيدًا منها فى أول السكة ، فإنه سيقبل عليك عند المغرب كهل طويل مسنون الوجه ، قد أثر السجود فى جبهته ، عليه جبة صوفٍ ، يستقى الماء على جمل وقد انصرف يسوق الجمل لا يضع قدماً ولا يرفعها إلا ذكر الله — عزّ وجل — ودموعه تنحدر ، فقم وسلم عليه وعانقه ، فإنه سيذعر منك كما يذعر الوحش ، فعرّفه نفسك وانتسب له ، فإنه يسكن إليك ويحدثك طويلاً ، ويسألك عنّا جميعاً ، ويخبرك بشأنه ، ولا يضجر بجلوسك معه ، ولا تطل عليه وودعه ، فإنه سوف يستعفيك

من العودة إليه ، فافعل ما يأمرك به من ذلك، فإنك إن عدت إليه توارى عنك، واستوحش منك وانتقل من موضعه ، وعليه فى ذلك مشقة .

فقلت : أفعل كما أمرتنى . ثم جهزنى إلى الكوفة وودعته وخرجت ، فلما وردت الكوفة قصدت سكة بنى حىّ بعد العصر ، فجلست خارجها بعد أن تعرفت الباب الذى نعته لى، فلما غربت الشمس إذا أنا به قد أقبل يسوق الجمل ، وهو كما وصف لى أبى ، لا يرفع قدماً ولا يضعها إلا حرّك شفتيه بذكر الله ، ودموعه ترقرق فى عينيه وتذرف أحياناً ، فقمت فعانقته ، فذعر منى كما يذعر الوحش من الإنس ، فقلت : يا عمّ ! أنا يحيى بن الحسين بن زيد بن أخيك ، فضمنى إليه وبكى ، حتى قلت قد جاءت نفسه ، ثم أناخ جمله ، وجلس معى ، فجعل يسألنى عن أهله رجلاً رجلاً ، وامرأةً امرأةً ، وصبياً صبياً ، وأنا أشرح له أخبارهم وهو يبكى ، ثم قال : يا بنىّ أنا أستقى على هذا الجمل الماء ، فأصرف ما أكتسب ، يعنى من أجرة الجمل ، إلى صاحبه ، وأتقوّت باقيه ، وربما عاقنى عائق عن استقاء الماء فأخرج إلى البرية ، يعنى بظهر الكوفة ، فألتقط ما يرمى الناس به من البقول فأتقوّته .

وقد تزوجت إلى هذا الرجل ابنته ، وهو لا يعلم مَنْ أنا إلى وقتى هذا ، فولدت منى بنتاً ، فنشأت وبلغتْ ، وهى أيضاً لا تعرفنى ، ولا تدرى من أنا ، فقالت لى أمها : زوّج ابنتك بابن فلان السقاء — لرجل من جيراننا يسقى الماء — فإنه أيسر منا وقد خطبها ، وألحت علىّ ، فلم أقدر على إخبارها بأن ذلك غير جائز ، ولا هو بكفء لها ، فيشيع خبرى ، فجعلت تلحُّ على فلم أزل أستكفى الله أمرها حتى ماتت بعد أيام ، فما أجدنى آسى على شىء من الدنيا أساى على أنها ماتت ولم تعلم بموضعها من رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال : ثم أقسم على أن أنصرف ولا أعود إليه وودعنى .

فلما كان بعد ذلك صرت إلى الموضع الذى انتظرته فيه لأراه فلم أره ، وكان آخر عهدى به[١] .

الحسين صاحب فخ

ليس المؤرخ هو الذى يذكر الحوادث ويسرد الأخبار فالمؤرخ الحق يعنى زيادة على هذا برسم أشخاصه وإبراز الجوانب المأثورة عنهم ليكمل بها إطار التاريخ . وهكذا فعل أبو الفرج وفيما اخترناه من أخبار الحسين صاحب فخ ومحمد بن صالح شاهد عدل .

١

. . . حدثنى الحسن بن هذيل قال :

قال لى الحسين صاحب فخ : اقترض لى أربعة آلاف درهم ، فذهبت إلى صديق فأعطانى ألفين وقال لى : إذا كان غد فتعال حتى أعطيك ألفين ، فجئت فوضعتها تحت حصير كان يصلى عليه ، فلما كان من الغد أخذت الألفين الأخريين ثم جئت أطلب الذى وضعته تحت الحصير فلم أجده فقلت له : يا بن رسول الله ، ما فعل الألفان ؟ قال : لا تسأل عنهما ، فأعدت فقال : تبعنى رجل أصفر من أهل المدينة فقلت : ألك حاجة ؟ فقال : لا ولكنى أحببت أن أصل جناحك فأعطيته إياها . أما أنى أحسبنى ما أجرت على ذلك لأنى لم أجد لها حباً وقال الله عزّ وجلّ : « لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبّون »[٢] .

---

(١) « مقاتل الطالبيين » الصفحات ٤٠٨ – ٤١٠ .

(٢) سورة آل عمران ٩٢ .

٢

. . حدثنى كردى بن يحيى عن الحسن بن هذيل قال :

كنت أصحب الحسين بن علىّ صاحب فخ فقدم إلى بغداد فباع ضيعة له بتسعة آلاف دينار ، فخرجنا فنزلنا سوق أسد ، فبسط لنا على باب الخان ، فأتى رجل معه سلة فقال له : مر الغلام يأخذ منى هذه السلة ، فقال له : وما أنت ؟ قال : أصنع الطعام الطيب ، فإذا نزل هذه القرية رجل من أهل المروءة أهديته إليه . قال : يا غلام خذ السلة منه ، وعد إلينا لتأخذ سلتك . قال : ثم أقبل علينا رجل عليه ثياب رثة فقال : أعطونى مما رزقكم الله ، فقال لى الحسين : ادفع إليه السلة ، وقال له : خذ ما فيها وردّ الإناء ، ثم أقبل علىّ وقال : إذا ردّ السائل السلة فادفع إليه خمسين دينارًا ، وإذا جاء صاحب السلة فادفع إليه مائة دينار ، فقلت إبقاءً منى عليه : جعلت فداك ، بعت عيناً لك لتقضى ديناً عليك فسألك سائل فأعطيته طعاماً ، وهو مقنع له ، فلم ترض حتى أمرت له بخمسين دينارًا ، وجاءك رجل بطعام لعله يقدر فيه دينارًا أو دينارين ، فأمرت له بمائة دينار ، فقال : يا حسن إن لنا ربًّا يعرف الحسنات ، إذا جاء السائل فادفع له مائة دينار وإذا جاء صاحب السلة فادفع له مائتى دينار ، والذى نفسى بيده إنى لأخاف أن لا يقبل منى ، لأن الذهب والفضة والتراب عندى بمنزلة واحدة .

٣

. . . حدثنى حمدون القرا قال :

ركب الحسين بن علىّ صاحب فخ دين كثير فقال لغرمائه : إلحقونى إلى باب المهدى ، وخرج فجاء إلى باب المهدى فقال لآذنه : ابن عمك الينبعى على الباب ،

قال : وكان راكباً على جمل ، فقال له ويلك ، أدخله على جمله ، فأدخله حتى أناخه فى وسط الدار ، فوثب المهدى فسلم عليه وعانقه وأجلسه إلى جنبه ، وجعل يسأله عن أهله ، ثم قال : يا بن عم ، ما جاء بك ؟ قال : ما جئت وورائى أحد يعطينى درهماً ، قال : أفلا كتبت إلينا ، قال ، أحببت أن أحدث بك عهداً . فدعا المهدى ببدرة دنانير و بدرة من دراهم وتخت من ثياب حتى دعا له بعشر بدر دنانير وعشر بدر دراهم وعشرة تخوت فدفعها إليه ، وخرج فطرح ذلك فى دار ببغداد ، وجاء غرماؤه فكان يقول للواحد : كم لك علينا ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيزن له ، ثم يدخل يده فى تلك الدراهم والدنانير فيقول : هذا صلة منا لك ، فلم يزل حتى لم يبق من ذلك المال إلاّ شىء يسير ، ثم انحدر إلى الكوفة يريد المدينة فنزل قصر ابن هبيرة فى خان ، فقيل لصاحب الخان : هذا رجل من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأخذ له سمكاً فشواه وجاء به ، ومعه رقاق وقال له : لم أعرفك يا بن رسول الله ، فقال لغلامه : كم بقى معك من ذلك المال؟ قال : شىء يسير والطريق بعيد ، قال : ادفعه إليه ، فدفعه إليه[1] .

محمد بن صالح

. . . حدثنى إبرهيم بن المدبر قال :

جاء محمد بن صالح الحسينى وسألنى أن أخطب عليه بنت عيسى بن موسى بن أبى خالد الحربى أو قال أخته ، شك ابن مهرويه ، ففعلت ذلك ، وصرت إلى عيسى فسألته أن يجيبه ، فأبى وقال لى : لا أكذبك والله ، إنى أوده لأنى لا أعرف أشرف وأشهر منه لمن يصاهره ، ولكنى أخاف المتوكل وولده بعده

---

(١) « مقاتل الطالبيين » ص ٤٣٨ – ٤٤٢

على نعمتى ونفسى ، فرجعت إليه فأخبرته بذلك ، فأضرب عنه مدة ، ثم عاودنى بعد ذلك وسألنى معاودته فعاودته ورفقت به حتى أجاب وزوّجه ، فأنشدنى محمد بعد ذلك لنفسه :

خطبت إلى عيسى بن موسى فردّنى   فلله والى مرّة وعتيقها
لقد ردنى عيسى ويعلم أننى   سليل بنات المصطفى وعريقها
فلما أبى بخلاً بها وتمنعاً   وصيَّرنى ذا خلة لا أطيقها
تداركنى المرء الذى لم يزل له   من المكرمات رحبها وطريقها
سمىّ خليل الله وابن وليه   وحمال أعباء العلا ومطيقها
فزوجنى والمن عندى لغيره   فيا بيعة وفتنى الربح سوقها
ويا نعمة لابن المدبر عندنا   يجدّ على كر الزمان أنيقها

قال ابن مهرويه : قال ابن المدبر : وكان اسم المرأة حمدونة ، فلما نقلت إليه ، وكانت امرأة جميلة عاقلة كاملة من النساء ، أنشدنى لنفسه فيها قوله :

لعمر حمدونة إنى بها   لمغرم القلب طويل السقامْ
مجاوز للقدر فى حبها   مباين فيها لأهل الملامْ
مطّرح للعذل ماض على   مخافة النفس وهول المقامْ
مشايعى قلب يعاف الخنا   وصارم يقطع صمّ العظامْ
جشمنى ذلك وجدى بها   وفضلها بين النساء الوسامْ
ممكورة الساق ردينية   مع الشوى الخدل وحسن القوامْ
صامتة الحجل خفوق الحشا   مائرة الساق ثقال القيامْ
ساجية الطرف نؤوم الضحى   منيرة الوجه كبرق الغمامْ

زيّنها الله وما شانها وأعطيت منيتها من تمامْ
تلك التى لولا غرامى بها كنت بسامرّا قليل المقامْ

وقال أبو الفرج :

وقد حدثنى بخبره على أتم فى هذه الحكاية عمى الحسين بن محمد قال :

حدثنا أبو جعفر بن الدهقانة النديم قال : حدثنى إبرهيم بن المدبر قال :

جاءنى يوماً محمد بن صالح الحسينى بعد أن أطلق من الحبس فقال لى : إنى أريد المقام عندك على خلوة لأبثك من أمرى شيئاً لا يصلح أن يسمعه أحد غيرنا ، فقلت : أفعل . فصرفت من كان بحضرتى وخلوت معه وأمرت بردّ دابته . فلما اطمأن وأكلنا واضطجعنا قال لى : أعلمك أنى خرجت فى سنة كذا وكذا ومعى أصحابى على القافلة الفلانية ، فقاتلنا من كان فيها فهزمناهم وملكنا القافلة ، فبينا أنا أحوزها وأنيخ الجمال ، إذ طلعت علىّ امرأة من عمارية ما رأيت قط أحسن منها وجهاً ولا أحلى منطقاً ، فقالت لى : يا فتى ، إن رأيت أن تدعو الشريف المتولى أمر الجيش ، فإن له عندى حاجة .

فقلت : قد رأيته وسمع كلامك .

فقالت لى : سألتك بالله وبحق رسوله أنت هو ؟

قلت : نعم والله وحق رسوله صلى الله عليه وآله إنى لهو .

فقالت : أنا حمدونة بنت عيسى بن موسى بن أبى خالد الحربى ، ولأبى محل من سلطانه ، ولنا نعمة إن كنت سمعت بها فقد كفاك ما سمعت ، وإن كنت لم تسمع بها فاسأل عنها غيرى ، ووالله لا استأثرت عليك بشىء أملكه ، ولك علىّ بذلك عهد الله جل وعز وميثاقه ، وما أسألك إلا أن تصوننى وتسترنى ،

وهذه ألف دينار معى لنفقتى فخذها حلالاً ، وهذا حلىّ علىّ من خمسمائة دينار فخذه ، وأضمن لك بعد أخذك إياه ما شئت على حكمك ، آخذه لك من تجار مكة والمدينة ، ومن أهل الموسم العراقيين ، فليس منهم أحد يمنعنى شيئاً أطلبه ، وادفع عنى واحمنى من أصحابك ومن عار يلحقنى .

فوقع قولها فى قلبى موقعاً عظيماً فقلت لها : قد وهب الله لك مالك وجاهك وحالك ، ووهبت لك القافلة بجميع ما فيها ، ثم خرجت فناديت فى أصحابى فاجتمعوا إلىّ ، فناديت فيهم إنى قد أجرت هذه القافلة وأهلها وخفرتها وحميتها وجعلت لها ذمة الله وذمة رسوله وذمتى ، فمن أخذ منها خيطاً أو مخيطاً أو عقالاً فقد آذنته بحرب . فانصرفوا معى وانصرفت ، وسار أهل القافلة سالمين .

فلما أخذت وحبست ، بينا أنا ذات يوم فى محبسى إذ جاءنى السجان فقال لى : إن بالباب امرأتين تزعمان أنهما من أهلك ، وقد حظر علىّ أن يدخل عليك أحد ، إلا أنهما قد أعطتانى دملج ذهب ، وجعلتاه لى إن أوصلتهما إليك ، وقد أذنت لهما وهما فى الدهليز ، فاخرج إليهما إن شئت .

فتنكرت من يجيئنى فى بلد غربة وفى حبس وحيث لا يعرفنى أحد ، ثم تفكرت فقلت : لعلهما من ولد أبى أو من بعض نساء أهلى ، فخرجت إليهما و إذا بصاحبتى ، فلما رأتنى بكت لما رأت من تغيير خلقى وثقل حديدى ، فأقبلت عليها الأخرى فقالت : أهو هو ؟ قالت : إى والله لهو هو . ثم أقبلت علىّ فقالت : فداك أبى وأمى ، لو استطعت أن أقيك مما أنت فيه بنفسى وأهلى لفعلت ، ولكنت بذاك منى حقيقاً ، ووالله لا تركت المعاونة والسعى فى خلاصك ، وكل حيلة ومال وشفاعة ، وهذه دنانير وطيب وثياب فاستعن بها على موضعك ، ورسولى يأتيك فى كل يوم بما يصلحك حتى يفرج الله عنك . ثم

أخرجت إلىّ المرأة كسوة وطيباً ومائتى دينار ، وكان رسولها يأتينى فى كل يوم بطعام نظيف ، ويتصل برّها عند السجان فلا يمتنع من كل ما أريد ، حتى منّ الله بخلاصى .

ثم راسلتها فخطبتها فقالت : أما من جهتى فأنا لك سامعة مطيعة ، والأمر إلى أبى ، فأتيته فخطبتها إليه فردّنى وقال : ما كنت لأحقق عليها ما شاع فى الناس عنك من أمرها فقد صيرتنا فضيحة . فقمت من عنده منكراً مستحيياً وقلت فى ذلك :

رمونى و إياها بشنعاء هم بها أحق أدال الله منهم فعجلا
بأمر تركناه ورب محمد عياناً فإما عفة أو تجملا

فقلت له : إن عيسى صنيعة أخى ، وهو لى مطيع ، وأنا أكفيك أمره ، فلما كان من غد لقيت عيسى فى منزله ثم قلت له : قد جئتك فى حاجة لى .

فقال : هى مقضية ؛ ولو كنت استعملت ما أحبه لأمرتنى أن أجيئك فجئتك فكان أسرّ إلىّ .

فقلت له : قد جئتك خاطباً إليك ابنتك .

فقال : هى لك أمة ، وأنا لك عبد ، وقد أجبتك .

فقلت : إنى خطبتها على من هو خير منى أباً وأمّاً ، وأشرف لك صهراً ومتّصلاً : محمد بن صالح العلوى .

فقال لى : يا سيدى ، هذا رجل قد لحقنا بسببه ظنّة ، وقيلت فينا أقوال .

فقلت له : أفليست باطلة .

فقال : بلى والحمد لله . فقلت : فكأنها لم تقل ، و إذا وقع النكاح زال كل قول وتشنيع ، ولم أزل أرفق به حتى أجاب .

و بعثت إلى محمد بن صالح فأحضرته وما برح حتى زوجه ، وسقت الصداق عنه من مالى [١] .

يوم أوارة

كذلك يعنى المؤرخ الكوفى بالأسباب والعلل عنايته بالمسبب والمعلول ، و بهذا تقضى فلسفة التاريخ ، فراعى أبو الفرج هذه الفلسفة حين قدّم الأسباب و بنى عليها النتائج .

نسخت ذلك من كتاب عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات بخطه ، وذكر أن أحمد بن الهيثم بن الفراس أخبره به عن العمرى عن هشام بن الكلبى عن أبيه وغيره من أشياخ طيئ قال : وحدثنى محمد بن أبى السرىّ عن هشام بن الكلبى قالوا :

كان من حديث يوم أوارة ، أن عمرو بن المنذر بن ماء السماء ، وهو عمرو ابن هند ، يعرف باسم أمّه هند بنت الحرث الملك المنصور بن حجر آكل المرار الكندى ، وهو الذى يقال له مفرط الحجارة ، إنه كان عاقد هذا الحىّ من طيئ ألّا ينازعوا ولا يفاخروا ولا يغزوا ، وأن عمرو بن هند غزا اليمامة ، فرجع منفضاً ، فمر بطيئ ، فقال له زرارة بن عدس ابن زيد بن عبد الله بن دارم الحنظلى : أبيتَ اللعن ، أصب من هذا الحى شيئاً ، قال : ويلك ، إن لهم عقداً ، قال : وإن كان ، فلم يزل به حتى أصاب نسوة وأزواداً ، فقال فى ذلك الطائىّ ، وهو قيس ابن جروة أحد الأحيين قال :

---

(١) « مقاتل الطالبيين » ص ٦٠٣ – ٦٠٨ و « الأغانى » ج ١٥ ص ٨٦ – ٨٨

ألا حيِّ قبل البَيْنِ من أنت عاشقُهْ ... ومن أنتَ مشتاقٌ إليه وشائقُهْ

ومن لا تواتى دارَهُ غير فينةٍ ... ومن أنت تبكى كلَّ يومٍ تفارقُهْ

وتعدو بصحراء الشوية ناقتى ... كعَدْوِ النحوصِ قد أنيخت نواهقُهْ

إلى الملكِ الخيْرِ ابْن هندٍ تزوره ... وليس من الفوْت الذى هو سابقُهْ

وإنَّ نساءً هنَّ ما قال قائلٌ ... غنيمة سوء بينهنَّ مهارقُهْ

ولو نيلَ فى عهدٍ لنا لحمُ أرنبٍ ... رددنا وهذا العهدُ أنت معالقُهْ

فهَبْكَ ابن هندٍ لم تعقكَ أمانةٌ ... وما المرء إلا عقدُهُ ومواثقُهْ

وكنَّا أناساً حافظين بنعمةٍ ... يسيل بنا تلع الملا وأبارقُهْ

فأقسمت لا أحتلّ إلا بصهوةٍ ... حرام علىّ رملهُ وشقائقُهْ

وأقسمت جهداً بالمنازل من منًى ... وما خبّ فى بطحائهنّ درادقُهْ

لئن لم تغيّرْ بعض ما قد فعلتمو ... لأنتحينّ العظمَ ذو أنت عارقُهْ

فسمى عارقاً بهذا البيت ، فبلغ هذا الشعر عمرو بن هند ، فقال زرارة بن عدس ، أبيت اللعن ، إنه يستوعدك ، فقال عمرو بن هند لترملة بن شعاث الطائى وهو ابن عم عارق : أيهجونى ابن عمك ويتوعّدنى ؟ قال والله ما هجاك ولكنه قد قال :

والله لو كان ابن جفنة جاركمْ ... ما إن كساكم غصّةً وهوانا

وسلاسلاً يبرقنَ فى أعناقكمْ ... وإذاً لقطّع تلكمُ الأقرانا

ولكان غارته على جيرانهِ ... ذهباً وريطاً رادعاً وجفانا

قالوا : الرادع المصبوغ بالزعفران ، وإنما أراد ترملة أن يذهب سخيمته ، فقال : والله لأقتلنه ، فبلغ ذلك عارقاً فأنشأ يقول :

من مبلغٌ عمرو بن هندٍ رسالةً إذا استحْقَبتْها العيس تمضى على البعد
أيوعدنى والرّمل بينى وبينه تبين رويداً ما أمامة من هندِ
ومما أجادونى رعان كأنها قبابل خيلٍ من كميتٍ ومن وردِ
غدرتَ بأمرٍ أنت كنت احتذيتنا عليه وشرُّ الشيمةِ الغدرُ بالعهدِ
فقد يتركُ الغدر الفتى وطعامه إذا هو أُمسى حلبةً من دم الفصْدِ

فبلغ عمرو بن هند شعره هذا ، فغزا طيئًا فأسر أسرى من طيءٍ بن أخزم وهو رهط حاتم بن عبد الله ، فيهم رجل من الأحيين يقال له قيس بن جحدر ، وهو جد الطرماح بن حكيم ، وهو ابن خالة حاتم ، فوفد حاتم فيهم إلى عمرو ابن هند ، وكذلك كان يصنع ، فسأله إياهم فوهبهم له إلا قيس بن جحدر ، لأنه كان من الأحيين من رهط عارق فقال حاتم :

فككت عديًّا كلها من إسارها فأنعم وشفّعنى بقيس بن جحدرِ
أبوه أبى والأمهات أُمهاتنا فأنعم فدتك اليوم نفسى ومعشرى

فأطلقه . قال : وبلغنا أن المنذر بن ماء السماء وضع ابنًا له صغيرًا ، ويقال بل كان أخًا له صغيرًا ، يقال له مالك ، عند زرارة ، وأنه خرج ذات يوم يتصيد فأخفق ولم يصب شيئًا ، فرجع فمر بإبل لرجل من بنى عبد الله بن دارم ، يقال له سويد بن ربيعة بن زيد بن عبد الله بن دارم ، وكانت عند سويد ابنة زرارة بن عدس ، فولدت له سبعة غلمة ، فأمر مالك بن المنذر بناقة سمينة منها فنحرها ثم اشتوى ، وسويد نائم ، فلما انتبه شدّ على مالك بعصا فضربه بها ، فأمّه ومات الغلام وخرج سويد هاربًا حتى لحق بمكة ، فعلم أنه لا يؤمن فحالف بنى نوفل بن عبد مناة ، واحتط بمكة ، فمن ولده أهاب من عزيز بن قيس بن

سويد ، وكانت طيء تطلب عثرات زرارة و بنى أبيه حتى بلغهم ما صنعوا بأخى الملك ، فأنشأ عمرو بن ثعلبة بن ملقط الطائى يقول :

من مبلغ عمرًا بأنّ المرء لم يخلق صبارة
لحوادث الأيام لا تبقى لها إلا الحجارة
إن ابن عجزة أمه بالسفح أسفلَ من أوارة
تسفى الرياحُ خلاله سحياً وقد سلبوا إزاره
فاقتل زرارة لا أرى فى القومِ أفضلَ من زرارة

فلما بلغ هذا الشعر عمرو بن هند بكى حتى فاضت عيناه ، و بلغ الخبر زرارة فهرب ، وركب عمرو بن هند فى طلبه فلم يقدر عليه ، فأخذ امرأته وهى حبلى . فقال أذكر فى بطنك أم أنثى ، قالت : لا علم لى بذلك ، قال : ما فعل زرارة الغادر الفاجر ؟ قالت : إن كان ما علمت الطيب العرق السمين المرق ، ويأكل ما وجد ، ولا يسأل عما فقد ، لا ينام ليلةَ يخاف ، ولا يشبع ليلة يضاف ، فبقر بطنها ، فقال : قوم زرارة لزرارة . والله ما قتلت أخاه فأت الملك ، فأصدقه الخبر فأتاه زرارة فأخبره الخبر ، فقال : جئنى بسويد ، فقال : لقد لحقَ بمكة ، قال : فعلىّ ببنيه التسعة وأمهم بنت زرارة غلمة بعضهم فوق بعض ، فأمر بقتلهم ، فتناولوا أحدهم فضربوا عنقه ، وتعلق بزرارة الآخرون ، فتناولوهم ، فقال زرارة : يا بعضى دع بعضاً ! فذهبت مثلاً ، وقتلوا . وآلى عمرو بن هند بألّية ليحرقن من بنى حنظلة مائة رجل ، فخرج يريدهم ، فبعث على مقدمته الطائى عمرو بن ثعلبة ابن عتاب ابن ملقط ، فوجدوا القوم قد نذروا ، فأخذوا منهم ثمانية وتسعين رجلاً بأسفل أوارة من ناحية البحرين فحبسهم ، ولحقه عمرو بن هند حتى انتهى إلى أوارة ، فضربت قبته فأمر لهم بأخدود وحفر لهم ، ثم أضرمه ناراً ،فلما احتدمت

وتلظت قذف بهم فيها ، فاحترقوا ، وأقبل راكب من البراجم ، وهم بطن من بنى حنظلة عند المساء ، ولا يدرى بشىء مما كان يوضع له بعيره فأناخ ، فقال له عمرو بن هنده : ما جاء بك ؟ قال حبّ الطعام ، قد أقويت ثلاثاً لم أذق طعاماً ، فلما سطع الدخان ظننته دخان طعام ، فقال له عمرو بن هند : ممن أنت ؟ قال : من البراجم ، قال عمرو: إن الشقى وافد البراجم ! فذهبت مثلاً ، ورمى به فى النار ، فهجت العرب تميماً بذلك ، فقال ابن الصعق العامرى قوله :

ألا أبلغ لديك بنى تميم   بآية ما يحبون الطعاما

وأقام عمرو بن هند لا يرى أحداً ، فقيل له : أبيت اللعن لو تحللت بامرأة منهم ، فقد أحرقت تسعة وتسعين رجلاً . فدعا بامرأة من بنى حنظلة ، فقال لها : من أنت ، قالت : أنا الحمراء بنت ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم ، قال : إنى لأظنك أعجمية ، فقالت : ما أنا بأعجمية ولا ولدتنى العجم :

إنى لبنتُ ضمرة بن جابرِ   ساد معدًّا كابراً عن كابرِ

إنى لأختُ ضمرة بن ضمرةِ   إذا البلاد لفّعتْ بجمرةِ

قال عمرو : أما والله لولا مخافة أن تلدى مثلك لصرفتك عن النار . قالت : أما والذى أسأله أن يضع وسادك ، ويخفض عمادك ، ويسلبك ملكك ، ما قتلت إلا نساء أعاليها ثدى ، وأسافلها دمى ، قال : اقذفوها فى النار ، فالتفتت فقالت: ألا فتى يكون مكان عجوز ؟ فلما أبطأوا عليها قالت : صارت الفتيان حمماً ! فذهبت مثلاً ، فأحرقت ، وكان زوجها يقال له حوذة بن جرول ، بن نهشل ابن دارم ، فقال لقيط بن زرارة يعير بني مالك ابن حنظلة فى أخذ من أخذ منهم الملك وقتله إياهم ونزولهم معه :

لمن دمنةٌ أقفرتْ بالجناب ... إلى السفح بين الملا بالهضاب

بكيتَ لعرفانِ آياتهـا ... وهاجَ لكَ الشوقَ نَعبُ الغراب

فأبلغْ لديك بنى مالكٍ ... مغلغـلةً وسراة الرباب

فإن امرأً أنتمو حوله ... تحفّون قبّتــه بالقباب

يهينُ سراتكمو عامداً ... ويقتلكم مثل قتل الـكلاب

فلو كنتمو إبلا أملحتْ ... لقد كرعت للمياهِ العِذاب

ولـكنكم غـنمٌ تصطفى ... ويترك سـائرها للذّباب

لعمرُ أبيك إلى الخير ما ... أردت بقتلهم من صواب

ولا نعمة إن خيرَ الملو ... كِ أفضلهم نعمة فى الرقاب (١)

السيف الكريم

أخبرنى أحمد بن عبد العزيز الجوهرى قال : حدّثنا على بن محمد النوفلى قال : حدّثنا أبى قال : حدّثنا الحسن بن محمد بن عبد الله بن حسن بن على قال : جاء أعرابى إلى أبى ، وهو مستتر بسُوَيْقَة (٢) قبل مخرجه ، ومعه سيف قد علاه الصدأ فقال : يا ابن رسول الله ، إنى كنت ببطن قُدَيْد (٣) أرعى إبلى وفيها فحلٌ قَطِم (٤) قد كنت ضربته فحقد علىّ وأنا لا أدرى ، فخلا بى فشدّ علىّ يريدنى وأنا أحضر ، ودنا منى حتى إن لُعابه ليسقط على رأسى لقربه منى . فأنا أشتدُّ

---

(١) «الأغانى» ج ١٩ ص ١٢٧ — ١٣٠

(٢) السويقة : علم لمكان .

(٣) مكان بالقرب من مكة .

(٤) القطم : الهائج .

وأنا أنظر إلى الأرض لعلى أرى شيئاً أذبُّه[(١)] عنى به ، إذ وقعت عينى على هذا السيف ، قد فحص عنه السيل ، فظننته عوداً بالياً ، فضربت بيدى إليه فأخذته ، فإذا سيف فذبيتُ به البعير عنّى ذبًّا والله ما أردت الذى بلغت منهُ ، فأصبت خيشومه فرميت بفُقْمِهِ[(٢)] ، فعلمت أنه سيف جيد ، وظننته من سيوف القوم الذين كانوا قتلوا فى وقعة قديد ، وها هو ذا قد أهديته لك يابن رسول الله . (قال) : فأخذه منه أبى وسرّ به وجلس الأعرابى يحادثه ، فبينا هو كذلك إذ أقبلت غنم لأبى ثلثمائة شاة فيها رعاؤها ، فقال له : يا أعرابى هذه الغنم والرعاة لك مكافأةً لك عن هذا السيف . (قال) : ثم أرسل به إلى المدينة أو أرسل إلى قَيْنٍ[(٣)] فأُتى به من المدينة ؛ فأمر به فحُلِّى ، فخرج أكرم سيوف الناس ، فأمر فاتّخذ له جفن[(٤)] ودفعه إلى أختى فاطمة بنت محمد . فلما كان اليوم الذى قُتل فيه قاتَلَ بغير ذلك السيف . (قال) : و بقى السيف عند أختى فاطمة بنت محمد فزرتها يوماً وهى بينبُع فى جماعة من أهل بيتى ، وكانت عند ابن عمها الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ، عليهم أجمعين السلام ، فخرجت إلينا — وكانت برزةً[(٥)] تجلس لأهلها كما يجلس الرجال وتحدّثهم — فجلست تحدّثنا ، وأمرت مولى لها فنحر لنا جزوراً ليهيئ لنا منها طعاماً ، فنظرت إليها والجزور فى النخل باركة وقد برزت وهى تسلخ ، فقالت : إنى لا أرى فى هذه الجزور مضرباً حسناً ، ثم دعت بالسيف وقالت : ياحسن فدتك أختك ، هذا سيف أبيك ، فخذه واجمع يديك فى قائمه ، ثم اضرب به أثناءها من خلفها (تريد عراقيبها) وقد أثبتها للبروك وهى

---

(١) أذبه : أدفعه .

(٢) الفقم : أحد اللحيين وطرف الحنك .

(٣) القين : الحداد وصانع السيوف .

(٤) الجفن : القراب .

(٥) البرزة من النساء : غير المتحجبة .

أربعة أعظم ، قال : فأخذت السيف ثم مضيت نحوها فضربت عراقيبها فقطعتها والله أربعتها ، وسبقني السيف فدخل فى الأرض فأشفقت عليه أن ينكسر إن اجتذبته فحفرتُ عنه حتى استخرجته (قال) : فذكرت حينئذ قول النَّمِر ابن تولب[1] :

أبقى الحوادثُ والأيامُ من نمرٍ أسبادَ سيفٍ كريم إثرهُ بادى
تظلّ تحفرُ عنـه الأرض مندفعاً بعد الذراعين والقيدين والهادى[2]

ويروى : تظل تحفر عنه إن ظفرت به .

ب — الناقد

أبو تمام

يصور لنا أبو الفرج فى هذه القطعة أبا تمام ، ويستعمل فى رسم تلك الصورة الألوان التى رسم بها النقاد شعر أبى تمام ، فكأنه إذ يروى عنهم يذهب مذهبهم ويطنب فى شاعريته وعبقريته :

أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، من نفس طيئ صليبة ، مولده ومنشؤه بناحية منبج بقرية منها يقال لها جاسم ، شاعرٌ مطبوعٌ لطيف ، الفطنة ، دقيق المعانى ، غوّاصٌ على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره ، وله مذهب فى المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء ، وإن كانوا قد فتحوه قبله ، وقالوا القليل منه ، فإن له فضل الإكثار فيه والسلوك فى جميع طرقه . والسليم من شعره النادر شىءٌ لا يتعلّق به أحد ، وله أشياء متوسطة ورديئة رذلة جدًّا . وفى عصرنا هـذا من يتعصّب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف ، وأقوام يتعمّدون

(١) «الأغانى» ج ١٩ ص ١٦١ — ١٦٢ .
(٢) الهادى : العنق .

الردىء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعملون القحة والمكابرة فى ذلك ليقول الجاهل بهم إنهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه إلّا بأدبٍ فاضل وعلم ثاقب ، وهذا مما يتكسَّب به كثيرٌ من أهل هذا الدهر ، ويجعلونه وما جرى مجراه من ثلب الناس وطلب معايبهم سبباً للترفع ، وطلباً للرياسة . وليست إساءة من أساء فى القليل وأحسن فى الكثير مسقطةً إحسانه ، ولو كثرت إساءته أيضاً ثم أحسن لم يقل له عند الإحسان أسأت ، ولا عند الصَّواب أخطأت . والتوسُّط فى كل شىء أجمل والحق أحقُّ أن يُتَّبع . وقد روى عن بعض الشعراء أن أبا تمام أنشده قصيدة له أحسن فى جميعها إلّا فى بيتٍ واحد فقال له : يا أبا تمام لو ألقيت هذا البيت ما كان فى قصيدتك عيب فقال له : أنا والله أعلم منه مثل ما تعلم ، ولكن مثل شِعْر الرجل عنده مثل أولاده : فيهم الجميل والقبيح ، والرشيد والسَّاقط ، وكلهم حلو فى نفسه . فهو وإن أحب الفاضل لم يبغض الناقص ، وإن هوى بقاء المتقدّم لم يَهْوَ موت المتأخر . واعتذاره بهذا ضدّ لما وصف به نفسه فى مدحه الواثق حيث يقول :

جاءتكَ من نظم اللسانِ قلادةٌ ... سمطان فيها اللؤلؤُ المكنونُ
أهداكها صنع اللسانِ يمدهُ ... جفرٌ إذا نضب الكلام معين[1]
ويسىء بالإحسان ظنًّا لا كمن ... هو بابنـهِ وبشعرهِ مفتونُ

فلو كان يسىء بالإساءة ظنًّا ولا يفتتن بشعره كنا فى غنى عن الاعتذار له ، وقد فضل أبا تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يشقّ الطاعنون عليه غباره ولا يدركون وإن جدُّوا آثاره ، وما رأى الناس بعده إلى حيث انتهوا له فى جده نظيراً ولا شكلاً .

---

(١) الجفر : البئر الواسعة .

ولولا أن الرُّواة قد أكثروا فى الاحتجاج له وعليه وأكثر متعصّبوه الشرح لجيّدِ شعره وأفرط معادوه فى التسطير لرديئه والتنبيه على رذله ودنيئه لذكرت منه طرفاً ، ولكن قد أتى من ذلك ما لا مزيد عليه . (أخبرنى) عمى قال حدثنى أبى قال سمعت محمد بن عبد الملك الزيات يقول أشعر الناس طرًّا الذى يقول :

وما أبالى وخيرُ القولِ أصدقُهُ ... حقنتَ لى ماء وجهى أو حقنتَ دمى

فأَحببت أن أستثبت إبراهيم بن العباس وكان فى نفسى أعلم من محمد وآدب فجلست إليه وكنت أجرى عنده مجرى الولد ، فقلت له مَنْ أشعر أهل زماننا هذا ؟ فقال الذى يقول :

مطرٌ أبوكَ أبو أهلَّة وائلٌ ... ملأ البسيطة عدَّةً وعديدا
نسب كأن عليه من شمس الضحى ... نوراً ومن فلق الصباح عمودا
ورثوا الأبوَّةَ والحظوظَ فأَصبحوا ... جمعوا جدوداً فى العلى وجدودا[1]

فاتفقا على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه . (أخبرنى) محمد بن يحيى الصولى وعلى بن سليمان الأخفش قالا : حدَّثنا محمد بن يزيد النحوى قال : قدم عمارة بن عقيل بغداد فاجتمع الناس إليه فكتبوا شعره وشعر أبيه وعرضوا عليه الأشعارَ فقال بعضهم ههنا شاعر يزعُمُ أنه أشعر الناس طرًّا و يزعم غيرهم ضد ذلك ، فقال أنشدونى قوله فأنشدوه :

غدتْ تستجيرُ الدَّمْعَ خوفَ نوى غدِ ... وعاد قتاداً عندها كل مرقدِ[2]
وأنقذها من غمرةِ الموتِ أنه ... صدودُ فراقٍ لا صدودُ تعمدِ
فأجرى لها الإشفاق دمعاً مورَّداً ... من الدَّمِ يجرى فوق خدٍّ مورَّدِ

---

(١) الجدود : الحظوظ ، وآباء الآباء .

(٢) النوى : الفراق . القتاد : الشوك .

هى البـدر يغنيها توردُ وجهها ... إلى كل من لاقتْ وإن لم توددِ

ثم قطع المنشد ، فقال له عمارة : زدنا من هذا فوصل نشيده وقال :

ولـكننى لم أحوِ وفراً مجمَّعاً ... ففزتُ به إلا بشملٍ مبدّد

ولم تعطنى الأيامُ نوماً مسكّناً ... ألذُّ به إلا بنومٍ مشرّدِ

فقال عمارة : لله درُّهُ ! لقد تقدم فى هذا المعنى من سبقه إليه على كثرة القول فيه حتى لقد حبَّب الاغتراب ، هيه . فأنشده :

وطولُ مُقام المرء فى الحىِّ مخلقٌ ... لديباجتيهِ فاغتربْ تتجدَّدِ (١)

فإنى رأيتُ الشمسَ زيدت محبَّةً ... إلى الناس أنْ ليستْ عليهم بسَرْمَدِ (٢)

فقال عمارة : كملْ والله ! لئن كان الشعر بجودة اللفظ وحسن المعانى واطّراد المراد واتّساق الكلام فإن صاحبكم هذا أشعر الناس . (أخبرنى) محمد بن يحيى الصولى قال : حدثنى محمد بن موسى بن حماد ، قال : سمعت على بن الجهم يصف أبا تمام ويفضله ، فقال له رجل : والله لو كان أبو تمام أخاك ما زدت على مدحك هذا فقال : إن لم يكن أخاً بالنسب فإنه أخٌ بالأدب والمودة . أما سمعت ما خاطبنى به حيث يقول :

إن لم يكدَ مطرَفُ الإخاء فإننـا ... نغدو ونسرى فى إخاء تالدِ

أو يختلف ماء الوصالِ فماؤنا ... عذبٌ تحدَّرَ من غمامٍ واحدِ

أو يفترقْ نسبٌ يؤلّفْ بيننا ... أدبٌ أقمناه مقام الوالدِ (٣)

---

(١) أخلق : أبلى .

(٢) السرمد : الدائم .

(٣) «الأغانى» ج ١٥ ص ٩٦ - ٩٧ .

البحترى

البحترى شاعر ملء القلب ، يضعه أبو الفرج حيث يجب أن يوضع ، وحيث أحب البحترى أن يضع نفسه فى المفاضلة بينه وبين أبى تمام . ويزيد أبو الفرج على جانب الشاعرية فى البحترى جانب النفس ، إذ يروى عنه تبرؤه من الهجاء :

ويكنى أبا عبادة ، شاعرٌ فاضل فصيح ، حسن المذهب نقىُّ الكلام مطبوع ، كان مشايخنا رحمة الله عليهم يختمون به الشعراء ، وله تصرّفٌ حسنٌ فاضل نقىّ فى ضروب الشعر سوى الهجاء ، فإن بضاعته فيه نزرة[1] وجيّده منه قليل . وكان ابنه أبو الغوث يزعُمُ أن السبب فى قلة بضاعته فى هذا الفن أنه لما حضره الموت دعا به وقال له : اجمع كلَّ شىء قلته فى الهجاء ، ففعل ؛ فأمره بإحراقه ثم قال له : يا بنىّ هذا شىء قلته فى وقت فشفيتُ به غيظى وكافأت به قبيحاً فعل بى ، وقد انقضى أربى فى ذلك ، وإن بقى روى . وللناس أعقاب يؤرثونهم العداوة والمودة ، وأخشى أن يعود عليك من هذا شىء فى نفسك أو معاشك لا فائدة لك ولا لى فيه . قال : فعلمت أنه قد نصحنى وأشفق علىَّ فأحرقته . أخبرنى بذلك على بن سليمان الأخفش عن أبى الغوث . وهذا وإن كان كما قال أبو الغوث لافائدة فيه له ، لأن الذى وجدناه وبقى فى أيدى الناس من هجائه فأكثره ساقط . . .

وكان البحترى يتشبَّه بأبى تمام فى شعره ويحذو مذهبه وينحو نحوه فى البديع الذى كان أبو تمام يستعمله ، ويراه صاحباً وإماماً ويقدّمه على نفسه ويقول فى الفرق بينه وبينه قول منصف : إن جيّدَ أبى تمام خير من جيده ، ووسطه خيرٌ من وسط أبى تمام ورديئه ، وكذا حكم هو على نفسه[2] .

---

(١) نزرة : قليلة .

(٢) « الأغانى » ج ١٨ ص ١٦٧ .

ابن المعتز

دافع أبو الفرج الأصبهانى فى هذه القطعة دفاعاً بليغاً عن ابن المعتز دل على إنصافه . والقطعة ترينا أبا الفرج ناقداً من أئمة النقد ، يرى لكل عصر من العصور صوراً خاصة تستلزم لغة خاصة ، فهو من المجددين لا من المحافظين ، وقد كانت لغته فى صدر الدفاع هادئة ساكنة ، ولكنه ما لبث أن ثار فى آخر كلامه فخرج عن الاعتدال وكادت لغته تبلغ مبلغ الشتم والتذف . والذى يخيل إلينا أن أبا الفرج فى دفاعه عن ابن المعتز وفى تعرضه للطاعنين عليه دافع عن نفسه ، فكأنه كان يشكو فى حياته ما شكاه ابن المعتز بعد موته :

وممن صنع من أولاد الخلفاء فأجاد وأحسن و برع [١] وتقدَّم جميع أهل عصره فضلاً وشرفاً وأدباً وشعراً وظَرْفاً [٢] وتصرّفاً فى سائر الآداب أبو العباس عبد الله ابن المعتز بالله . وأمره مع قرب عهده بعصرنا هذا مشهور فى فضائله وآدابه شهرةً تشرك فى أكثر فضائله الخاص والعامّ ، وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة [٣] المحدثين : فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ولا تقصّر عن مدى السابقين ، وأشياء ظريفة من أشعار الملوك فى جنس ماهم بسبيله ، ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية ،فليس يمكن واصفاً لصَبوح [٤] فى مجلس شـكِل [٥] ظريف ، وعلى ميادين من النوْر والبنفسج والنرجس ومنضود [٦] من أمثال ذلك ، إلى غير ما ذكرته من جنس المجالس ، وفاخر الفرش ، ومختار الآلات ، ورقة الخدم أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام السبْط [٧] الذى يفهمه كل من حضر ، إلى جَعْدِ [٨] الكلام ووحشيّه [٩] ،

---

(١) برع : فاق أصحابه . (٢) الظرف : الكياسة .

(٣) الهلهل : الثوب السخيف النسج . هلهله النساج .

(٤) الصبوح : ما حلب من اللبن بالغداة وما أصبح عندهم من شراب .

(٥) الشكل : بالكسر والفتح غنج المرأة ودلها وغزلها .

(٦) نضد متاعه : جعل بعضه فوق بعض .

(٧) السبط : السهل المرسل .

(٨) الجعد : المعقد . (٩) الوحشى : الغامض .

وإلى وصف البيد والمهامه[١] والظبى والظليم[٢] والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسىء ، ولا أن يغمط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسّط فى البعض وقصر فى اليسير ، وينسب إلى القصير فى الجميع لنشر المقابح وطى المحاسن . فلو شاء أن يفعل هذا كله أحد بمن تقدم لوجد مساغاً . ولو أن قائلاً أراد الطعن على صدور الشعراء ، لقد رأى أن يطعن على الأعشى وهو أحد من يقدمه الأوائل على سائر الشعراء بقوله : « فأصاب حبة قلبه وطحالها »

و بقوله :

ويأمر لليحموم كل عشيّـة بقتٍّ وتعليق فقد كاد يسنقُ[٣]

وأمثال لهذا كثيرة . وإنما على الإنسان أن يحفظ من الشىء أحسنه ، ويلغى مالم يستحسنه فليس مأخوذاً به ، ولكن أقواماً أرادوا أن يرفعوا أنفسهم الوضيعة بذكرهم الخامل ، ويعلوا أقدارهم الساقطة بالطعن على أهل الفضـل والقدح فيهم فلا يزدادون بذلك إلا ضعة ولا يزداد الآخر إلا ارتفاعاً . ألا ترى إلى ابن المعتز قد قتل أسوأ قتلة ، ودرج فلم يبق له خلف يقرّظة[٤] ولا عقب يرفع منه ، وما يزداد بأدبه وشعره وفضله وحسن أخباره وتصرفه فى كل فنّ من العـلوم إلا رفعة وعلواً؛ولا نظر إلى أضداده كلما ازدادُوا فى طعنه وتقريظ أنفسهم وأسلافهم

---

(١) المهامه : جمع مهمه وهو المفازة البعيدة .

(٢) الظليم : ذكر النعام .

(٣) القت : الحب البرى . التعليق : ما تتبلغ به الماشية من الشجر . اليحموم : اسم فرس . سنق من اللبن كفرح بشم واتخم .

(٤) قرظه : مدحه وهو حى .

الذين كانوا مثلهم في ثلبه والطعن عليه زادوها سقوطاً وضعة ، وكلما وصفوا أشعارهم وقرظوا آدابهم ، زادوا بها ثقلاً ومقتاً فإذا وقع عليهم المحصّل[١] الموافق عدلوا عن ثلبه في الآداب إلى الشنيع[٢] عليه بأمر الدين وهجاء آل طالب ، وهم أول من فعل ذلك وشنّع به على آل أبي طالب عند المكتفي حتى نهاهم عنه . فعدلوا عن عيب أنفسهم بذلك إلي عيبه ، وارتكبوا أكثر منه[٣] .

ج — مصور المجتمع

تسلط العامة على الخاصة

تتبع أبو الفرج الأصبهاني أخبار العامة وذكر طائفة من عقولها وتدليسها ولغتها ومعتقداتها وتسلطها على الخاصة بحيث إذا أردنا الموازنة بين العامة في غابرنا والعامة في حاضرنا وصلنا إلى تشابه في جملة من أوضاعهم ، وهذا الخبر يدلنا على مقدار تسلط العامة على الخاصة حتى يضطر رجل مثل أبي يوسف القاضي إلى أن يتقي شرها .

قدم ابن جامع قدمة له من مكة على الرشيد ، وكان ابن جامع حسن السَّمْت[٤] كثير الصلاة قد أخذ السجود جبهته ، وكان يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة، ويلبس لباس الفقهاء ويركب حماراً مرّيسياً[٥] في زي أهل الحجاز . فبينما هو واقف على باب يحيي بن خالد يلتمس الإذن عليه ، فوقف على ما كان يقف الناس عليه في القديم حتى يأذن لهم أو يصرفهم ، فأقبل أبو يوسف القاضي بأصحابه أهل

---

(١) المحصل : المميز .

(٢) التشنيع : تكثير الفظاعة والقبح .

(٣) « الأغاني » ج ٩ ص ١٣٣ — ١٣٤ .

(٤) السمت : هيئة أهل الخير .

(٥) المريسي : قد يجوز أن يكون الحمار المرييسي منسوباً إلى مريسة وهي قرية .

القلانس ، فلمّا هجم على الباب نظر إلى رجل يقف إلى جانبه ويحادثه ، فوقعت عينه على ابن جامع ، فرأى سَمْته وحلاوة هيئته ، فجاء فوقف إلى جانبه ، ثم قال له : أمتع الله بك ! توسمت فيك الحجازية والقرشية . قال أصبت ، قال : فمن أى قريش أنت قال : من بنى سهم ، قال فأى الحرمين منزلك ! قال : مكة ، قال : ومن لقيت من فقهائهم ! قال : سَلْ عمن شئت . ففاتحه الفقه والحديث فوجد عنده ما أحب ، فأعجب به ونظر الناس إليهما فقالوا : هذا القاضى قد أقبل على المغنى ، وأبو يوسف لا يعلم أنه ابن جامع ، فقال أصحابه : لو أخبرناه عنه ، ثم قالوا : لعله لا يعود إلى مرافقته بعد اليوم فلِمَ نغمه؛ فلما كان الإذن الثانى ليحيى غدا عليه الناس ، وغدا عليه أبو يوسف ، فنظر يطلب ابن جامع فرآه ، فذهب فوقف إلى جانبه ، فحادثه طويلاً كما فعل فى المرة الأولى . فلما انصرف قال له بعض أصحابه : أيها القاضى ، أتعرف هذا الذى تواقف وتحادث ! قال : نعم، رجل من قريش،من أهل مكة من الفقهاء . قالوا : هذا ابن جامع المغني . قال: إنا لله ! قالوا : إن الناس قد شهروك بموافقته وأنكروا ذلك من فعلك . فلما كان الإذن الثالث جاء أبو يوسف ونظر إليه فتنكبه[1] ، وعرف ابن جامع أنه قد أنذر به فجاء فوقف فسلم عليه فرد السلام عليه أبو يوسف بغير ذلك الوجه الذى كان يلقاه به ثم انحرف عنه ، فدنا منه ابن جامع ، وعرف الناس القصة ، وكان ابن جامع جهيراً ، فرفع صوته ثم قال : يا أبا يوسف مالك تنحرف عني ! أى شىء أنكرت! قالوا لك إنى ابن جامع المغنى فكرهت مواقفتى لك ! أسألك عن مسئلة ثم اصنع ما شئت . ومال الناس فأقبلوا نحوهما يستمعون فقال : يا أبا يوسف لو أن أعرابياً جلفاً وقف بين يديك فأنشدك بجفاء وغلظة من لسانه وقال :

---

(١) تنكبه : عدل عنه .

يا دار ميّة بالعلياء فالسَّندِ أقوت وطال عليها سالف الأبدِ

أكنت ترى بذلك بأساً ؟ قال : لا . قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الشعر قول وروى فى الحديث . قال ابن جامع : فإن قلت أنا هكذا . . . ثم اندفع يتغنى فيه حتى أتى عليه ، ثم قال : يا أبا يوسف رأيتنى زدت فيه أو نقصت منه ؟ قال : عافاك الله ! أعفنا من ذلك ، قال : يا أبا يوسف أنت صاحب فتيا ، ما زدت على أن حسنته بألفاظى فحسن فى السماع ووصل إلى القلب . ثم تنحّى عنه ابن جامع[1] .

عقلية العامة

العامة عامة فى كل عصر ، أفتختلف هذه العقلية التى وصفها أبو الفرج عن عقلية العامة فى زمننا هذا ؟ فكتاب الأغانى لم يقتصر على أخبار الخلفاء والملوك وإنما نزل صاحبه إلى مستوى الشعب فراقب أخلاقه وعاداته وعقليته .

قال أبو الفرج :

أخبرنى الحسن بن على قال : حدثنا ابن مِهْرَوَيْه قال : حدَّثنى عثمان الورّاق قال : رأيت العتّابى يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام ، فقلت له : ويحك أما تستحى ؟ فقال لى : أرأيت لو كنّا فى دار فيها بقر كنت تستحى وتحتشم أن تأكل وهى تراك ؟ فقال : لا ، قال : فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر ، فقام فوعظ وقصّ ودعا حتى كثر الزحام عليه ، ثم قال لهم : روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبة[2] أنفه لم يدخل النار ! فما بقى أحد إلّا وأخرج لسانه يومئ به نحو

---

(١) « الأغانى » ج ٦ ص ٦٦ — ٦٧ .

(٢) الأرنبة : طرف الأنف .

أرنبة أنفه ويقدر حتى يبلغها أم لا ، فلما تفرقوا قال لى : العتَّابى : ألم أخبرك أنهم بقر ![1]

الغناء فى دمشق

هذه القطعة تدلنا على ذوق أهل دمشق فى الغناء من أيام بنى أمية ، فكتاب الأغانى لا يقتصر على جمع الأغانى العربية قديمها وحديثها ، وإنما فيه تصوير للحياة من أكثر نواحيها ولولا هذه الصور المبعثرة فى أضعافه لضاع علينا كثير من آثار الحياة فى الدولتين الأموية والعباسية .

قال معبد :

أرسل إلىّ الوليد بن يزيد فأشخصت[2] إليه ، فبينما أنا يوماً فى بعض حمامات الشام إذ دخل علىّ رجلٌ له هيبة ومعه غلمان فاطَّلى واشتغل به صاحبُ الحمّام عن سائر الناس ، فقلت : والله لئن لم أُطلع هذا على بعض ما عندى لأكوننّ بمزجر[3] الكلب ، فاستدبرْتُهُ[4] حيث يرانى ويسمع منى ثم ترنَّمت ، فالتفت إلىّ وقال للغلمان : قدّموا إليه ما ههنا ، فصار جميع ما كان بين يديه عندى ، قال : ثم سألنى أن أسير معه إلى منزله فأَجبته ، فلم يدع من البر والإكرام شيئاً إلّا فعله ، ثم وضع النبيذ فجعلت لا آتى بحسنٍ إلاَّ خرجت إلى ما هو أحسن منه ، وهو لا يرتاح ولا يحفل[5] لما يرى منى . فلما طال عليه أمرى قال : يا غلام ! شيخَنا شيخَنا ! فأُتى بشيخٍ فلما رآه هشّ إليه ، فأَخذ الشيخ العود ثم اندفع يغنّى :

جاء القطّ أكله ويْلى علوّهْ   سِلَّوْرٌ فى القدْرِ ويْلى علوّهْ

---

(١) « الأغانى » ج ١٢ ص ٤ .

(٢) أشخص إليه : أرسل إليه .

(٣) يقال فلان من فلان بمزجر الكلب أى بمنزلته .

(٤) استدبره : جاءه من خلفه .

(٥) يحفل : يكترث .

السلّور السمك الجِديّ بلغة أهل الشام قال : فجعل صاحب المنزل يصفِّق ويضرب برجله طرباً وسروراً . قال : ثم غنّاه :

وترميني حبيبة بالدراقن   وتحسبنى حبيبة لا أراها

الدراقن اسم الخوخ بلغة أهل الشام ، قال : فكاد أن يخرج من جلده طرباً قال : وانسللت منهم وانصرفت ولم يعلم ما بى . فما رأيت مثل ذلك اليوم قط غناء أضيع ولا شيخاً أجهل [1] .

الغناء فى حمص

لا نمر بخبر فى كتاب الأغانى إلا وجدنا فيه شيئاً طريفاً ، فإذا أرشدنا هذا الخبر إلى ذوق أهل حمص فى الغناء فى قديم العصور فهو يرشدنا إلى مجتمعاتهم القديمة وهى الحمامات التى كانت تقوم مقام المقاهى فى عصرنا هذا .

أما التحفة اللغوية التى نظفر بها فى هذه القطعة فهى كلمة الخفائف التى كانت تستعمل بدلا من الطناطيق فى هذا اليوم .

قال حنين :

خرجتُ إلى حمص ألتمسُ الكسبَ بها وأرتادُ من أَستفيد منه شيئاً ، فسألت عن الفتيان وأين يجتمعون ، فقيل لى : عليك بالحمّامات، فإنهم يجتمعون بها إذا أصبحوا ، فجئتُ إلى أحدها فدخلته فإذا فيه جماعة منهم ، فأنستُ وانبسطت ، وأخبرتهم أنى غريب ، ثم خرجوا وخرجت معهم فذهبوا بى إلى منزل أَحدهم ، فلما قعدنا أُتينا بالطعام فأَكلنا ، وأُتينا بالشَّراب فشربنا ، فقلت لهم : هل لكم فى مغنٍ يغنِّيكم ؟ قالوا : ومن لنا بذلك ؟ قلت : أَنا لكم به ، هاتوا عوداً ، فأُتيت به ، فابتدأت فى هنات أَبى عبّاد معبد ، فكأَنما غنّيتُ

---

(١) «الأغانى» ج ١ ص ٢٦ .

للحيطان ، لا فكهوا لغنائى ولا سرُّوا به ، فقلت : ثقل عليهم غناء معبد لكثرة عمله وشدَّته وصعوبة مذهبه ، فأخذت فى غناء الغريض فإذا هو عندهم كلا شىء ، وغنَّيتُ خفائف ابن سريج ، وأهزاج حكم ، والأغانى التى لى ، واجتهدت فى أن يفهموا فلم يتحرَّك من القوم أحدٌ . وجعلوا يقولون : ليت أبا منبه قد جاءنا . فقلت فى نفسى : أرى أنى سأفتضح اليوم بأبي منبه فضيحةً لم يفتضح أحدٌ قطُّ مثلها ، فبينا نحن كذلك إذ جاء أبو منبه ، و إذا هو شيخٌ عليه خفَّان أحمران كأنه جمال ، فوثبوا جميعاً إليه وسلموا عليه ، وقالوا : يا أبا منبه أبطأتَ علينا ، وقدَّموا له الطعام وسقوه أقداحاً ، وخنستُ أنا حتى صرتُ كلا شىء خوفاً منه ، فأخذ العود ثم اندفع يغنِّى :

طرب البحرُ فاعبرى يا سفينَهْ لا تشقِّى على رجال المدينه

فأقبل القوم يصفقُون و يطربون و يشربون ، ثم أخذ فى نحو هذا من الغناء فقلت فى نفسى : أنتم هنا لئن أصبحتُ سالماً لا أمسيتُ فى هذه البلدة . فلما أصبحت شددت رحلى على ناقتى واحتقبت ركوةً من شراب ورحلت متوجِّهاً إلى الحيرة وقلت :

ليت شعرى متى تخبّ بى النَّا قةُ بين السَّدير والصّنينِ [١]
محقباً ركوة وخبز رقاق و بقولاً وقطعةً من نونِ [٢]
لستُ أبغى زاداً سواها من الشَّا مِ وحسبى علالةً تكفينى [٣]
فإذا أبْتُ سالماً قلتُ سَحقا و بعاداً لمعشر فارقونى [٤]

---

(١) الخبب : ضرب من العدو . صنين : كسكين موضع بالكوفة .

(٢) الرقاق كغراب الخبز الرقيق .

(٣) العلالة ما يتعلل به وما حلب بعد الفيقة الأولى .

(٤) « الأغانى » ج ٢ ص ١١٩ .

مجالس ملوك غسان

وصف أبو الفرج فى هذا الخبر مجلس جبلة بن الأيهم أحد ملوك غسان ، وهو خبر طريف لأنا لا نستطيع أن نهتدى إلى أخبار أولئك الملوك الخاصة فى كثير من كتبنا ، فقد يهمنا أن نعرف كيف كان طرز عيشة ملوك عاصروا البيزنطيين فى الشام ، وكيف كان أدبهم وأخلاقهم فى مجالسهم ؛ وفى هذا الخبر موازنة بين أخلاق طائفة من المسلمين فى أثناء الشرب و بين أخلاق طائفة من الغساسنة :

قال خارجة بن زيد : دُعينا إلى مأدبة فى آل نبيط فحضرتها وحسّان بن ثابت قد حضرها ، فجلسنا جميعاً على مائدةٍ واحدة وهو يومئذ قد ذهب بصره ومعه ابنه عبد الرحمن ، فكان إذا أتى طعام سأل ابنه : أطعامُ يدٍ أم يدين ، يعنى باليد الثّريد و باليدين الشِّواء[1] لأنه ينهش نهشاً ؛ فإذا قال : طعام يدين ، أمسك يده . فلما فرغوا من الطعام أتوا بجاريتين إحداهما رائقة والأخرى عزّة جلستا وأخذتا مزهريهما وضربتا ضرباً عجيباً وغنّتا بقول حسّان :

انظرْ خليلى ببابِ جلّق هل   تبصر دون البلقاء من أحدِ[2]

فأسمع حسان يقول : قد أرانى بها سميعاً بصيراً ، وعيناه تدمعان ، فإذا سكتتا سكت عنه البكاء ، وإذا غنّتا بكى . فكنت أرى ابنه عبد الرحمن إذا سكتتا يشير إليهما أن تغنّيا فيبكى أبوه فيقول : ما حاجته إلى إبكاء أبيه ؟ قال الواقدى : فحدّثت بهذا الحديث يعقوب بن محمد الظَّفَرى فقال : سمعت سعيدَ بنَ عبدِ الرحمنِ بنِ حسانَ يقول : لما انقلب حسانُ من مأدبة بنى نبيط إلى منزله استلقى على فراشه ووضع إحدى رجليه على الأخرى وقال : لقد أذكرتنى رائقةُ وصاحبتُها أمراً ما سمعته أذناى بُعَيْد ليالى جاهليتنا مع جبلة بن الأَيهم ، فتبسّم

---

(١) الشواء : اللحم المشوى .

(٢) جلق : من أسماء دمشق أو غوطتها .

ثم جلس فقال : لقد رأيت عشر قيان خمس روميَّات يغنِّينَ بالرومية بالبرابط[١] وخمس قيانٍ يغنِّينَ غناءأهل الحيرة،وأهداهنَّ إليه إياس بن قبيصة ، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . وكان إذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب ، وأتى بالمسك الصحيح فى صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندّى إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بطِّن بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضل[٢] هو وأصحابه بها فى الصيف وفى الشتاء الفِراء الفَنَك[٣] وما أشبهه ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع علىّ ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم، وعلى غيرى من جلسائه هذا مع حلم عمن جهل ، وضحك وبذل من غير مسألة ، مع حسن وجه وحسن حديث ما رأيت منه خنًى قطّ ولا عربدة ، ونحن يومئذ على الشرْك فجاء الله بالإسلام فمحا به كل كفر وتركنا الخمر وما كره وأنتم اليوم مسلمون تشربون هذا النبيذ من التمر والفضيخ[٤] من الزهر والرطب فلا يشرب أحدكم ثلاثة أقداحٍ حتى يصاحب صاحبته ويفارقها وتضرب فيه كما تضرب غرائب[٥] الإبل فلا تنتهون[٦] .

---

(١) البرابط : واحدها البربط وهو العود .

(٢) يتفضل بها : يبتذلها .

(٣) الفنك : دابة فروتها أطيب أنواع الفراء .

(٤) الفضيخ : عصير العنب وشراب يتخذ من بسر مكسور .

(٥) غرائب الإبل : البعيدة .

(٦) « الأغانى » ج ١٦ ص ١٣ — ١٤ .

الأعشى والمحلق

كان الشعر فى المجتمع العربى القديم يفعل فى التنويه بالمآثر والمكرمات ما تفعله اليوم الصحافة والإذاعة، ثم كان السبيل إلى أعلى درجات المجد والشرف إذا كان الشاعر صاحب لسان رطب يطرى فعال الكرام، وهذه الحكاية مثل صادق: لذلك المجتمع وأثر الشعر فيه:

(وأخبرنى) محمد بن الحسن بن دريد قال : حدّثنا أبو حاتم عن أبى عبيدة عن فراس بن الخندف قال : كانت هريرة وخليدة أختين قَيْنَتين[1] كانتا لبشر ابن عمرو بن مرثد، وكانتا تغنّيانه النصب، وقدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان. قال ابن دريد : فأخبرنى عمى عن ابن الكلبى بمثل ذلك (وأخبرنى) محمد بن العباس اليزيدى عن الرياشى مما أجازه له عن العتبى عن رجل من قيس عيلان قال : كان الأعشى يوافى سوق عكاظ فى كل سنة، وكان المحلق الكلابى مئناثاً مملقاً[2]، فقالت له امرأته : يا أبا كلاب ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر ؟ فما رأيت أحداً اقتطعه إلى نفسه إلا وأكسبه خيراً، قال : ويحكِ ما عندى إلا ناقتى وعليها الحمل، قالت : الله يخلفها عليك. قال : فهل له بدّ من الشراب والمسوح ؟ قالت : إن عندى ذخيرةٌ لى ولعلى أن أجمعها. قال : فتلقّاهُ قبل أن يسبق إليه أحد، وابنُه يقودُهُ فأخذ الخطام[3]، فقال الأعشى : من هذا الذى غلبنا على خِطامنا ؟ قال : المحلق. قال : شريف كريم. ثم سلمه إليه فأناخه فنحر له ناقته وكشط له عن سَنامها[4] وكبدها ثم سقاه. وأحاطت بناته به يغمزنه ويمسحنه فقال : ما هذه الجوارى حولى ؟ قال : بنات أخيك، وهن ثمان

---

(١) القينة : الأمة والمغنية.

(٢) أى كان كثير الإناث فقيراً.

(٣) الخطام : كل ما يوضع فى أنف البعير ليقاد به.

(٤) السنام : حدبة فى ظهر البعير.

شريدتهن قليلة . قال : وخرج من عنده ولم يقل فيه شيئاً . فلما وافى سوق عكاظ إذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها و إذا الأعشى ينشدهم :

لعمرى لقد لاحتْ عيونٌ كثيرةٌ — إلى ضوء نارٍ باليفاعِ تحرّقُ

تُشَبُّ لمقـرورين يصطليانِها — وبات على النارِ النّدى والمحلّقُ

رضيعى لبانٍ ثدى أمٍّ تحالفا — بأسحمَ داجٍ عَوْضُ لا نتفرّقُ

فسلم عليه المحلق فقال له : مرحباً يا سيّدى بسيّد قومه . ونادى يا معاشر العرب هل فيكم مذكار يزوج ابنه إلى الشريف الكريم ؟ (قال) فما قام من مقعده وفيهن مخطوبة إلا وقد زوّجها . . .

(وذكر) على بن محمد النوفلى فى خبر المحلق مع الأعشى غير هذه الحكايات، وزعم أن أباه حدّثه عن بعض الكلابيين من أهل البادية قال : كان لأبى المحلق شرف ، فمات وقد أتلف مالَه وبقى المحلق وثلاث أخوات له ، ولم يترك لهم إلا ناقة واحدة وحلتى برود جيدة كان يسدّ بها الحقوق . فأقبل الأعشى من بعض أسفاره يريدُ منزله باليمامة ، فنزل الماء الذى به المحلق، فقراه[1] أهل الماء فأحسنوا قراه ، فأقبلت عمة المحلق فقالت : يا ابن أخى ! هذا الأعشى قد نزل بمائنا وقد قراه أهل الماء، والعرب تزعم أنه لم يمدح قوماً إلا رفعهم ولم يهج قوماً إلا وضعهم، فانظر ما أقول لك واحتل فى زقّ من خمر من عند بعض التجار، فأرسل إليه بهذه الناقة والزق و بردتى أبيك ، فوالله لئن اعتلج الكبد والسّنام والخمر فى جوفه ، ونظر إلى عطفيه فى البردتين ليقولن فيك شعراً يرفعك به . قال : ما أملك غير هذه الناقة ، وأنا أتوقع رسلها ، فأقبل يدخل و يخرج و يهمّ ولا يفعل ، فكلما دخل على عمته حضّته حتى دخل عليها فقال : قد ارتحل الرجل ومضى . قالت

---

(١) قراه : أضافه .

الآن والله أحسن ما كان القرى ! تتبعه ذلك مع غلامِ أبيك ، مولى له أسود شيخ ، فحيثما لحقه أخبره عنك أنك كنت غائباً عن الماء عند نزوله إياه ، وأنت لما وردت الماء فعلمت أنه كان كرهت أن يفوتك قِراه ، فإن هذا أحسن لموقعه عنده . فلم تزل تحضّه حتى أتى بعض التجار فكلمه أن يقرضه ثمن زقّ خمرٍ وأتاه بمن يضمنُ ذلك عنه فأعطاه . فوجّه بالناقة والخمر والبردين مع مولى أبيه فخرج يتبعه ، فكلما مرّ بماء قيل ارتحل أمس عنه، حتى صار إلى منزل الأعشى بمنفوحة اليمامة ، فوجد عنده عدّةً من الفتيان قد غداهم بغير لحم وصب لهم فضيخاً . فيهم يشربون منه إذ قُرِعَ الباب فقال : انظروا من هذا ؟ فخرجوا فإذا رسول المحلق يقول كذا وكذا . فدخلوا عليه وقالوا : هذا رسول المحلق الكلابى أتاك بكيت وكيت . فقال : ويحكم ! أعرابى والذى أرسل إلىّ لا قَدْرَ له ، والله لئن اعتلج الكبدُ والسَّنامُ والخمرُ فى جوفى لأقولن فيه شعراً لم أقل قطّ مثله ، فواثبه الفتيان وقالوا : غبتَ عنّا فأطلت الغيبة ثم أتيناك فلم تطعمنا لحماً وسقيتنا الفضيخ ، واللحم والخمر ببابك ، لا نرضى بذا منك ، فقال : ائذنوا له فدخل فأدّى الرسالة وقد أناخ الجزور بالباب ووضع الزق والبردين بين يديه قال : أقرِهِ السلام وقل له : وصلتْك رَحِمٌ سيأتيك ثناؤنا . وقام الفتيان إلى الجزور فنحروها وشقّوا خاصرتها عن كبدها وجلدها عن سَنامها ثم جاءوا بهما فأقبلوا يشوون ، وصبّوا الخمر فشربوا وأكل معهم وشرب ولبس البردين ونظر إلى عطفيه فيهما فأنشأ يقول :

* أرقت وما هذا السهاد المؤرّقُ * حتى انتهى إلى قوله :

أبا مِسْمَعٍ سار الذى قد فعلتمُ ... فأنجد أقوامٌ به ثم أعرقوا[1]

به تعقدُ الأجمالُ فى كلِّ منزلٍ ... وتعقد أطرافُ الحبـالِ وتطلقُ

---

(١) أنجد : دخل نجداً . وأعرق : أتى العراق .

قال فسار الشعر وشاع فى العرب فما أتت على المحلق سنة حتى زوج أخواته الثلاث كل واحدة على مائة ناقة فأيسر وشرف (١) .

مباراة الأجواد

الجود شيمة من شيم العرب عرفوا بها كما عرفوا بسواها من الشيم الرفيعة كالإباء والشمم وحماية الجار . ولقد كان الجود عنصراً مهما من عناصر حياتهم الاجتماعية ، فلا بد لمن يصور تلك الحياة من الإلمام بهذا الجانب ، كما فعل أبو الفرج فى هذه الحكاية وكثير غيرها .

أخبرنى محمد بن خلف بن المرزبان قال : حدثنا أحمد بن الهيثم بن فراس قال : حدثنا العمرى عن الهيثم بن عدى عن ابن عياش قال : كان حوشب بن يزيد ابن الحويرث بن رويم الشيبانى وعكرمة بن ربعى يتنازعان الشرف ويتباريان فى إطعام الطعام ونحر الجزر فى عسكر مصعب ، وكاد حوشب يغلب عكرمة لسعة يده ، قال وقدم عبد العزيز بن يسار مولى بختر قال ، وهو زوج أم شعبة الفقيه ، بسفائن دقيق فأتاه عكرمة فقال له : الله الله فىّ قد كاد حوشب أن يستعلينى ويغلبنى بماله فبعنى هذا الدقيق بتأخير ، ولك فيه مثلُ ثمنه ربحاً فقال : خذه وأعطاه إياه فدفعه إلى قومه وفرّقه بينهم ، وأمرهم بعجنه كله فعجنوه كله ، ثم جاء بالعجين كله فجمعه فى هوّةٍ عظيمة وأمر به فغطّى بالحشيش ، وجاء برَمَكةٍ (٢) فقرّبوها إلى فرس حوشب حتى طلبها وأفات ، ثم ركضوها بين يديه وهو يتبعها حتى ألقوها فى ذلك العجين ، وتبعها الفرسُ حتى تورّطا فى العجين وبقيا فيه جميعاً . وخرج قوم عكرمة يصيحون فى العسكر ، يا معشر المسلمين أدركوا فرس حوشب فقد غرق فى خميرة عكرمة . فخرج الناس تعجّباً من ذلك أن تكون خميرة

---

(١) «الأغانى» ج ٨ ص ٧٦ — ٧٧ .

(٢) الرمكة : الفرس .

يغرق فيها فرس ، فلم يبق فى العسكر أحد إلا ركب ينظرُ وجاءوا إلى الفرس وهو غريق فى العجين ما يبين منه إلا رأسه وعنقه ، فما أُخرج إلا بالعمد والحبال ، وغلب عليه عكرمة وافتضح حوشب فقال العديل بن الفرخ يمدحهما و يفخر بهما :

وعكرمةُ الفيّاضُ فينا وحوشبٌ هما فتيا الناس اللذا لم يغمّرا
هما فَتَيا الناس اللذا لم ينلهما رئيسٌ ولا الأقيالُ من آلِ حِمْيرَا (١)

قال : وفى حوشب يقول الشاعر :

وأجوَدُ بالمـال من حاتمٍ وأنْحَرُ للجزْرِ من حوشب (٢)

زهو الصعاليك

كانت الصعلكة ناحية من نواحى المجتمع العربى القديم ، وكان فى الصعاليك شعراء وأصحاب مآثر ، فلم يغفل عنهم أبو الفرج عند تصويره المجتمع . وهذه لمحة من لمحات الصعلكة :

قال المدائنى : وحدّثنى أبو الهيثم قال : اجتمع مالك بن الريب وأبو حَرْدَبة وشِظاظ يوماً فقالوا : تعالوا نتحدّث بأعجب ما عملناه فى سرقتنا ، فقال أبو حردبة : أعجبُ ما صنعتُ وأعجبُ ما سرقتُ أنى صحبت رفقةً فيها رجلٌ على رَحْلٍ فأعجبنى ، فقلت لصاحبى : واللهِ لأسرقنّ رحله ثم لا رضيت أو آخذ عليه جُعالة (٣) . فرمقتُهُ حتى رأيته قد خفق برأسه فأخذت بخطام جمله فقدته وعدلت به عن الطريق ، حتى إذا صيرّته فى مكان لا يُغاثُ فيه إن استغاث أنخت البعير وصرعته فأوثقت يده ورجله وقدت الجملَ فغيَّبته ثم رجعت إلى الرفقة وقد

---

(١) الأقيال : جمع قيل وهو الرئيس والملك من ملوك حمير .

(٢) «الأغانى» ج ٢٠ ص ١٨ — ١٩ .

(٣) الجعالة : الأجر .

فقدوا صاحبهم فهم يسترجعون[١] فقلت : ما لكم ؟ فقالوا : صاحب لنا فقدناه ، فقلت : أنا أعلمُ الناس بأثره ، فجعلوا لى جعالة فخرجت بهم أتبع الأثر حتى وقفوا عليه فقالوا : مالك ! قال : لا أدرى نعستُ فانتبهت لخمسين فارساً قد أخذونى فقاتلتهم فغلبونى . قال أبو حردبة : فجعلت أضحك من كذبه ، وأعطونى جعالتى وذهبوا بصاحبهم . (وأعجب ما سرقت) أنه مرَّ بى رجل معه ناقة وجمل ، وهو على الناقة فقلت لآخذنّهما جميعاً ، فجعلت أعارضه وقد رأيته خفق برأسه ، فدرتُ فأخذتُ الجمل فحللته وسقته فغيّبته فى القصيم ، وهو الموضع الذى كانوا يسرقون فيه ، ثم انتبه فالتفت فلم يرَ جمله ، فنزل وعقل راحلته ومضى فى طلب الجمل ، ودرت فحللت عقال ناقته وسقتها ، فقالوا لأبى حردبة : ويحك فختّامَ تكون هكذا ؟ قال اسكتوا فكأنكم بى وقد تبت واشتريت فرساً وخرجت ، فبينا أنا واقفٌ إذ جاءنى سهم كأنه قطعة رشاء[٢] فوقع فى نحرى فمت شهيداً (قال) فكان كذلك : تاب وقدم البصرة فاشترى فرساً وغزا الروم فأصابه سهم فى نحره فاستشهد . ثم قالوا لِشظاظ : أخبرنا أنت بأعجب ما أخذت فى لصوصيتك ورأيت فيها ، فقال : نعم، كان فلان رجل من أهل البصرة له بنت عمّ ذات مالٍ كثير ، وهو وليّها وكانت له نسوة فأبت أن تتزوجه فحلف أن لا يزوّجها من أحد ضِراراً لها ، وكان يخطبها رجل غنىّ من أهل البصرة فحرضت[٣] عليه وأبى الآخر أن يزوجها منه ، ثم إن ولىّ الأمر حجّ حتى إذا كان بالدوّ[٤] على مرحلة من البصرة حذاءها قريب منه جبل يقال له سَنام ، وهو

---

(١) أى يقولون : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٢) الرشاء : الحبل .

(٣) حرضت : حزنت .

(٤) الدو : الصحراء .

منزل الرفاق إذا صدرت أو وردت مات الولى فدفن برابية وشيّد على قبره فتزوجت الرجل الذى كان يخطبها ، قال شِظاظ : وخرجت رفقةٌ من البصرة معهم بُرٌّ ومتاع فتبصرتهم وما معهم واتبعتهم حتى نزلوا ، فلما ناموا بيّتهم وأخذت من متاعهم ، ثم إن القوم أخذونى وضربونى ضرباً شديداً وجرّدونى .

(قال) وذلك فى ليلة قرّة وسلبونى كل قليل وكثير فتركونى عرياناً وتماوتُّ لهم ، وارتحل القوم فقلت : كيف أصنع ، ثم ذكرت قبر الرجل فأتيته فنزعت لوحة ثم احتفرت فيه سَرَباً فدخلت فيه ثم سددت علىّ باللوح وقلت : لعلى الآن أدفأ فأتبعهم .

(قال) : ومرّ الرجل الذى تزوج بالمرأة فى الرفقة ، فمرّ بالقبر الذى أنا فيه فوقف عليه وقال لرفيقه : والله لأنزلن إلى قبر فلان حتى أنظر هل يحمى الآن بضع فلانة ، قال شظاظ : فعرفت صوته فقلعت اللوح ثم خرجت عليه بالسيف من القبر وقلت : بلى وربِّ الكعبة لأحمينّها . فوقع والله على وجهه مغشيًّا عليه لا يتحرّك ولا يعقل ، فجلست على راحلته وعليها كل أداة وثياب ونقدٍ كان معه ، ثم وجهتها قصد مطلع الشمس هارباً من الناس فنجوت بها فكنت بعد ذلك أسمعه يحدّث الناس بالبصرة ويحلف لهم أن الميت الذى كان منعه من تزوج المرأة خرج عليه من قبره بسَلَبِهِ (١) وكفنه فبقى يوْمه ثم هرب منه والناس يعجبون منه ، فعاقلهم يكذّبه ، والأحمق منهم يصدقه ، وأنا أعرف القصة فأضحك منه كالمتعجب ، قالوا : فزِدْنا قال : فأنا أزيدكم أعجب من هذا : إنى لأمشى فى الطريق أبتغى شيئاً أسرقه فلا والله ما وجدت شيئاً قال : وشجرة ينام من تحتها الرّكبان بمكان ليس فيه ظل غيرها ، وإذا أنا برجل يسير على حمار

---

(١) السلب : الملابس .

له ، فقلت له : أتسمع ؟ قال : نعم ، قلت : إن المقيل الذى تريد أن تقيله يخسف بالدواب فيه فاحذره ، فلم يلتفت إلى قولى .

(قال) ورمقه حتى إذا نام أقبلت على حماره فاستقته حتى إذا برزتُ به قطعت طرف ذنبه وأذنيه ، وأخذت الحمار فخبأته . وأبصرته حين استيقظ من نومه فقام يطلب الحمار ويقفو أثره ، فبينا هو كذلك إذ نظر إلى طرف ذنبه فقال : لعمرى لقد حذرت لو نفعنى الحذر ، واستمرّ هارباً خوف أن يخسف به ، فأخذت جميع ما بقى من رحله فحملته على الحمار وأستمرّ فألحق بأهلى .

قال (أبو الهيثم) ثم صلب الحجاج رجلاً من الشراة بالبصرة وراح عشياً لينظر إليه فإذا برجل بإزائه مقبل بوجهه عليه فدنا منه فسمعه يقول للمصلوب : طال ما ركبت فأَعْقِبْ (١) . فقال الحجاج : من هذا ؟ قالوا هذا شِظاظ اللص قال : لا جرم والله ليعقبنّك . ثم وقف وأمر بالمصلوب فأنزل وصلب شظاظاً مكانه . (٢)

---

(١) أعقب : اجعل غيرك مكانك .

(٢) « الأغانى » ج ١٩ ص ١٦٧ – ١٦٩ .

د — القصص

بدوى فى عرس

وصف أبو الفرج الأصبهانى فى هذه القطعة أشياء كثيرة : وصف القرية وحالات البدوى والطعام والشراب والسكر وآلات الغناء . وقد ظهرت براعة أبى الفرج فى وصف حالات البدوى النفسية وفى وصف سكره واهتدينا إلى خصائص لغته ، وأهم هذه الخصائص صب اللفظ فى مواضعه فهو يميل إلى استعمال الألفاظ على حقيقتها وإلى استعمال الصفات الخاصة وهذا كله مما يزيد فى وضوح الوصف .

(أخبرنى) الحسن بن على الخفَّاف قال : حدثنا محمد بن القاسم قال : حدثنى الفضل بن العباس الهاشمى من ولد قُثَم بن جعفر بن سليمان عن أبيه قال : كان ناهض بن ثُومة الكلابى يفد على جدى قثم فيمدحه و يصله جدى وغيره . وكان بدويًّا جافياً كأنه من الوحش ، وكان طيب الحديث فحدّثه يوماً أنهم انتجعوا ناحية الشام ، فقصد صديقاً له من ولد خالد بن يزيد بن معاوية كان ينزل حلب فإذا نزل نواحيها أتاه فمدحه وكان برًّا به ، قال : فمررت بقرية يقال لها قرية بكر بن عبد الله الهلالى ، فرأيت دوراً متباينة وخصاصاً[1] قد ضمّ بعضها إلى بعض ، و إذا بها ناس كثيرون مقبلون ومدبرون ، عليهم ثياب تحكى ألوان الزهْر . فقلت فى نفسى : هذا أحد العيدين الأضحى أو الفِطر ، ثم ثاب إلىّ ما عزب[2] عن عقلى ، فقلت خرجت من أهلى فى بادية البصْرة فى صَفَرَ وقد مضى العيدان قبل ذلك ، فما هذا الذى أرى ؟ فبينما أنا واقف متعجب أتانى رجل فأخذ بيدى فأدخلنى دارًا قوراء[3] وأدخلنى منها بيتاً قد نُجِّدَ فى وجهه فُرُش ومهدت ، وعليها شاب ينال فروع شعره من منكِبيه والناس حوله سماطان ، فقلت فى نفسى :

---

(١) الخصاص : جمع الخص وهو البيت من القصب .

(٢) عزب : غاب وذهب .

(٣) قوراء : واسعة .

هذا الأمير الذى حُكى لنا جلوسه على الناس وجلوس الناس بين يديه ، فقلت وأنا ماثل بين يديه : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله و بركاته ، فجذب رجل بيدى وقال : اجلس فإن هذا ليس بأمير . قلت : فما هو ؟ قال : عروس . فقلت : وا ثكلَ أماه ! لربّ عروس رأيته بالبادية أهون على أهله . فلم أنشب أن دخل الرجال يحملون هنات [١] مدوَّرات . أمّا ما خفّ منها فيحمل حملًا ، وأمّا ما كبُر وثقُل فيدحرج . فوُضع ذلك أمامنا ، وتحلّق [٢] القوم عليه حَلَقاً ، ثم أتينا بخِرَق بيض فألقيت بين أيدينا فظننتها ثياباً وهممت أن أسأل القوم منها خِرقاً أقطعها قميصاً ، وذلك أنى رأيت نسجاً متلاحماً لا يبين له سَدَى ولا لُحمة ، فلما بسطه القوم بين أيديهم إذا هو يتمزق سريعاً ، و إذا هو فيما زعموا صِنْف من الخبز لا أعرفه، ثم أُتينا بطعامٍ كثير بين حلو وحامض وحار و بارد فأ كثرت منه ، وأنا لا أعلم ما فى عقبه من التخْم والبَشَم ، ثم أُتينا بشراب أحمر فى عساس [٣] . فقلت : لا حاجة لى فيه ، فإنى أخاف أن يقتلنى . وكان إلى جانبى رجلٌ ناصح لى أحسن الله جزاءه ، فإنه كان ينصح لى من بين أهل المجلس فقال: يا أعرابى إنك قد أ كثرت من الطعام و إن شربت الماء همى [٤] بطنك . فلما ذكر البطن تذكرت شيئاً أوصانى به أبى والأشياخ من أهلى قالوا : لا تزال حيًّا ما كان بطنك شديداً ، فإذا اختلف [٥] فأوصِ . فشربت من ذلك الشراب لأتداوَى به ، وجعلت أ كثر منه فلا أمل شُربه ، فتداخلنى من ذلك صَلَف لا أعرفه من نفسى ، و بكاء لا أعرف سببه ولا عهد لى بمثله ، واقتدار على أمرٍ

---

(١) الهنات : الأشياء اليسيرة .

(٢) تحلقوا : جلسوا حلقات .

(٣) العساس : الأقداح العظام الواحد عس .

(٤) همى : سقط .

(٥) اختلف : لان بطنه .

أظن معه أني لو أردت نيل السقف لبلغته ، ولو ساورت الأسد لقتلته ، وجعلت ألتفت إلى الرجل الناصح لى فتحدثنى نفسى بهتم أسنانه ، وهشم أنفه . . فبينا نحن كذلك إذ هجم علينا شياطين أربعة ، أحدهم قد علَّق فى عنقه جعْبة[1] فارسية مسنَّجة[2] الطرفين دقيقة الوسَط مشبوحة بالخيوط شبحاً منكراً ، ثم بدر الثانى فاستخرج من كمه هنة سوداء فوضعها فى فيه وصوَّت بها صوتاً لم أسمع وبيت الله أعجب منه فاستتم بها أمرهم ، ثم حرَّك أصابعه على أحْجُرٍ فيها فأخرج منها أصواتاً ليس كما بدأ ، ولكنه أتى منها لما حرك أصابعه بصوت عجيب متلائم متشاكل بعضُه لبعضٍ كأنه علم الله ينطق ، ثم بدا ثالث كز[3] مقيتٌ عليه قميص وسخ ، معه مرآتان . فجعل يصفق بهما بيديه إحداهما على الآخرة فخالطت بصوته ما يفعله الرجلان ، ثم بدا رابع عليه قميص مصون وسراويل مصون ، وخفّان أخذمان[4] لا ساق لواحد منهما ، فجعل يقفز كأنه يثب على ظهور العقارب ، ثم التُبط به على الأرض ، فقلت معتوه ورب الكعبة ، ثم ما برح مكانه حتى كان أَغبط القوم عندى ، ورأيت القوم يحذفونه بالدراهم حذفاً منكراً ثم أرسل النساء إلينا أن أمتعونا من لهوكم هذا فبعثوا بهم وجعلنا نسمع أصواتهن عن بعد ، وكان معنا فى البيت شاب لا آبه له فعلَت الأصوات بالثناء عليه والدعاء فخرج فجاء بخشبة عيناها فى صدرها ، فيها خيوط أربعة فاستخرج من خلالها عوداً فوضعه خلف أُذنه ثم عرك آذانها وحركها بخشبة فى يده فنطقت ورب الكعبة ، وإذا هى أحسن قينةٍ رأيتها قط ، وغنَّى فأطربنى حتى استخفنى من مجلسى ، فوثبت

---

(١) الجعبة : كنانة النشاب .

(٢) مسنجة : مخططة .

(٣) كز : قبيح .

(٤) أخذمان : مقطعان .

فجلست بين يديه وقلت: بأبى أنت وأُمى ! ما هذه الدابة فلست أعرفها للأعراب وما أراها خُلقت إلا قريباً ! فقال : هذا البرْبط[١] . فقلت : بأبى أنت وأُمى ! فما هـذا الخيط الأسفل ،قال : الزير ، قلت : فالذى يليه ، قال : المثنّى ، قلت : فالأعلى ، قال : البَم[٢] ، فقلت : آمنت بالله أولًا و بك ثانياً و بالبرْبَط ثالثاً وبالبَم رابعاً . قال : فضحك أبى والله حتى سقط ، وجعل ناهض يعجب من ضِحكه . ثم كان بعد ذلك يستعيده هـذا الحديث و يطوف به إخوانه فيعيده و يضحكون منه[٣] .

طمع أعرابى

هذه رواية هزلية ركز أبو الفرج أبطالها تركيزاً لا نستطيع أن نجد أشد إحكاماً منه ، ولم تكن براعته فى تدريج حوادث الرواية بأقل من براعته فى تركيز أبطالها ، فلا يكاد القارىء يفرغ من مفاجأة المشهد الأول حتى ينتقل إلى مفاجأة أقوى ، وعلى هذا الشكل يظل ذهنه متعلقاً بالرواية من أول مشاهدها إلى آخرها .

وقد تجلى فن أبى الفرج الأصبهانى فى هذه الرواية ، فقد اجتمع له من الألفاظ المحسوسة والتشبيهات الناطقة ما أعانه على دقة التصوير ، والشىء الغالب على الرواية إنما هو روح السخرية .

أخبرنى محمد بن مزيدٍ قال : حدّثنا عمر بن شبّة قال : حدّثنا ابن زبالة قال : حدّثنا ابن ربيح راوية بن هَرْمة عن أبيه قال: كان أبان بن عثمان من أهزل الناس وأعبثهم و بلغ من عبثه أنه كان يجىء بالليل إلى منزل رجل فى أعلى المدينة له لقب يغضب منه فيقول له : أنا فلان ابن فلان ، ثم يهتف بلقبه فيشتمه أقبح شتم وأبان يضحك ، فبينا نحن ذات يوم عنده وعنده أشعب إذ

---

(١) البربط : العود .

(٢) البم : الوتر الغليظ .

(٣) « الأغانى » ج ١٢ ص ٣٣ — ٣٥ .

أقبل أعرابى ومعه جمل له ، والأعرابى أشقر أزرق أزعر[١] غضوب ، يتلظى[٢] كأنه أفعى ويتبين الشرّ فى وجهه ، ما يدنو منه أحد إلا شتمه ونهره ، فقال أشعب لأبان : هذا والله من البادية ، ادعوه . فدعى وقيل له : إن الأمير أبان بن عثمان يدعوك ، فأتاه فسلّم عليه ، فسأله أبان عن نفسه فانتسب له فقال : حيّاك الله يا خالى . حبيب ازداد حبًّا ، فجلس فقال له : إنى فى طلب جمل مثل جملك هذا منذ زمان فلم أجده كما اشتهى بهذه الصفة وهذه القامة واللون والصدر والورك[٣] والأخفاف ، فالحمد لله الذى جعل ظفرى به من عند من أحبه ، أتبيعه ؛ فقال : نعم أيها الأمير . فقال . فإنى قد بذلت لك به مائة دينار ، وكان الجمل يساوى عشرة دنانير ، فطمع الأعرابى وسرّ وانتفخ وبان السرور والطمع فى وجهه ، فأقبل أبان على أشعب ثم قال له : ويلك يا أشعب إن خالى هذا من من أهلك وأقاربك يعنى الطمع فأوسع له مما عندك فقال له : نعم ، بأبى أنت وزيادة ، فقال له أبان : يا خالى إنما زدتك فى الثمن على بصيرة ، وإنما الجمل يساوى ستين ديناراً ولكن بذلت لك مائة لقلة النقد عندنا ، وإنى أعطيك به عروضاً[٤] تساوى مائة ، فزاد طمع الأعرابى وقال : قد قبلت ذلك أيها الأمير ، فأسرَّ إلى أشعب فأخرج شيئاً مغطّى فقال له : أخرج ما جئت به ، فأخرج جَرْد عمامة خز خَلَق[٥] تساوى أربعة دراهم فقال له : قوّمها يا أشعب ، فقال له : عمامة الأمير تعرف به ويشهد فيها الأعياد والجمع ويلقى فيها الخلفاء ،

---

(١) شعر أزعر : قليل متفرق .

(٢) يتلظى : يتلهب .

(٣) الورك والورك : ما فوق الفخذ .

(٤) العروض : جمع العرض وهو المتاع وكل شىء سوى النقدين .

(٥) الخلق : البالى للمذكر والمؤنث . الجرد : الخلق .

خمسون ديناراً فقال : ضعها بين يديه ، وقال لابن ربيح أثبت قيمتها ، فكتب ذلك ووضعت العمامة بين يدى الأعرابى فكاد يدخل بعضه فى بعض غيظاً ولم يقدر على الكلام ، ثم قال : هات قلنسوتى ، فأخرج قلنسوة طويلة خلَقة قد علاها الوسخ والدهن وتخرقت تساوى نصف درهم ، فقال : قوّم فقال : قلنسوة الأمير تعلو هامته و يصلى فيها الصلوات الخمس ويجلس للحكم ، ثلاثون ديناراً ، فقال : أثبت ، فأثبت ذلك ، ووضعت القلنسوة بين يدى الأعرابى فتربّد[١] وجهه وجحظت عيناه[٢] وهمّ بالوثوب ثم تماسك وهو متقلقل ، ثم قال لأشعب : هات ما عندك فأخرج خفّين خلقين قد نقبا[٣] وتقشّرا وتفنّقا فقال له : قوّم ، فقال خفّا الأمير يطأ بهما الروضة و يعلو بهما منبر النبى صلى الله عليه وسلم ، أربعون ديناراً ، فقال ضعهما بين يديه ، فوضعهما ، ثم قال للأعرابى : اضمم إليك متاعك ، وقال لبعض الأعوان : اذهب فخذ الجمل ، وقال لآخر : امض مع الأعرابى فاقبض منه ما بقى لنا عليه من ثمن المتاع ، وهو عشرون ديناراً ، فوثب الأعرابى فأخذ القماش[٤] فضرب به وجوه القوم لا يألو فى شدة الرمى به ، ثم قال له : أتدرى أصلحك الله من أى شىء أموت قال : لا ، قال لم أدرك أباك عثمان فأشترك والله فى دمه إذ ولد مثلك ، ثم نهض مثل المجنون حتى أخذ برأس بعيره . وضحك أبان حتى سقط كل من كان معه ، وكان الأعرابى بعد ذلك إذا لقى أشعب يقول له : هلمّ إلى يا ابن الخبيثة حتى أكافئك على تقويمك المتاع يوم قوّم فيهرب أشعب منه[٥] .

---

(١) تربد : تغير .

(٢) جحظت عينه : خرجت مقلتها .

(٣) نقبا : رقا .

(٤) القماش : ما على وجه الأرض من فتات الأشياء .

(٥) « الأغانى » ج ١٧ ص ١٠٢ — ١٠٣ .

عفو أمير

هذه قصة صغيرة ، عرضت حوادثها فى أوضح معرض ، كل حادثة منها مربوطة بعلتها وسببها ، ورتبت ترتيباً متقناً ، رواها أبو الفرج على شكل مستميل ، لم يفاجىء القارئ مفاجأة بعفو الأمير من أول القصة وإنما استدرجه إلى ذلك استدراجاً حتى يبقى ميله إلى معرفة الخاتمة معلقاً .

صورت هذه القصة أمراً روحانياً وهو العفو والمروءة ، ولذلك نجد فيها الألفاظ المجردة . أما الألفاظ المحسوسة فهى قليلة ، فلم يلجأ فيها أبو الفرج إلى اللغة الشعرية وإنما لجأ إلى تقطيع عباراته والأسلوب المقطع هو الذى يصلح للقصة الصغيرة :

(أخبرنى) عمى قال : حدثنى أبو جعفر بن الدِّهقانة [1] النديم قال : حدثنى محمد بن الفضل الخراسانى وكان من وجوه قوّاد طاهر وابنه عبد الله وكان أديباً عاقلاً فاضلاً قال :

لما قال عبد الله بن طاهر قصيدته التى يفخر فيها بمآثرِ أبيه وأهله ، ويفخرُ بقتلهم المخلوع ، عارضه محمد بن يزيد الأموى الحصنى وكان رجلاً من ولد مسلمة ابن عبد الملك ، فأفرط فى السبّ ، وتجاوز الحد فى قبح الرد وتوسط بين القوم وبين بنى هاشم فأربى فى التوسط والتعصّب فكان فيما قال فيه :

يا ابنَ بيتِ النار موقدها ما لحاذيه سراويلُ [2]

مَنْ حسين مَنْ أبوك ومَنْ مصعبٌ غالتكم غولُ [3]

نسبٌ فى الفخرِ مؤتشبٌ وأبوّات أراذيلُ [4]

قاتل المخلوع مقتولُ ودمُ المقتولِ مطلولُ [5]

---

(١) الدهقان : بكسر الدال وضمها زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم .

(٢) حاذيه : من حذى الرجل نعلا ألبسه إياها .

(٣) غاله : أهلكه .

(٤) مؤتشب : غير صريح فى النسب . الأراذيل : من الرذيل وهو الخسيس .

(٥) مطلول : لا يثأر به .

وهى قصيدةٌ طويلة . فلما ولى عبد الله مصر ، وردَّ إليه تدبير أمر الشأم علم الحصنى أنه لا يفلت منه إن هرب ، ولا ينجو من يده حيث حلّ ، فثبت فى موضعه ، وأحرز حرمه ، وترك أمواله ودوابّه وكل ما كان يملكه فى موضعه ، وفتح باب حصنه وجلس عليه ، ونحن نتوقَّع من عبدالله بن طاهر أن يوقع به . فلما شارفنا بلده [١] وكنا على أن نصبحه ، دعانى عبد الله الليل فقال لى : بِتْ عندى الليلة وليكن فرسك معدًّا عندك لا يردّ ففعلت ، فلما كان فى السحَر أمر غلمانه وأصحابه أن يرحلوا حتى تطلع الشمس ، وركب فى السَّحَر وأنا وخمسة من خواص غلمانه ، فسار حتى صبح الحصنى فرأى بابه مفتوحاً ورآه جالساً مسترسلاً فقصده وسلم عليه ونزل عنده ، وقال له : ما أجلسك ههنا وجعلك على أن فتحت بابك ولم تتحصّن من هذا الجيش المقبل ، ولم تتنحَّ عن عبدالله بن طاهر مع ما فى نفسه عليك وما بلغه عنك ، فقال : إن ما قلت لم يذهب علىَّ ولكنى تأملت أمرى وعلمت أنى أخطأت خطيئة حملنى عليها نزقُ الشباب وغرّةُ الحداثة ، وأنى إن هربت منه لم أفته فباعدت البنات والحرم ، واستسلمت بنفسى وكل ما أملك ، فإنّا أهلُ بيت قد أسرع القتل فينا ، ولى بمن مضى أسوةٌ فإنى أثق بأن الرجل إذا قتلنى وأخذ مالى شفى غيظه ، ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم ولا له فيهنَّ أرب ، ولا يوجب جرمى إليه أكثر مما بذلته قال : فوالله ما اتّقاه عبد الله إلا بدموعه تجرى على لحيته ، ثم قال له : أتعرفنى قال : لا والله ، قال : أنا عبد الله ابن طاهر ، وقد أمَّن الله تعالى روعتك [٢] ، وحقَنَ دمَك ، وصانَ حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك ، وما تعجّلت إليك وحدى إلا لتأمن من قبل هجوم الجيش ، ولئلا يخالط عفوى عنك روعة تلحقك . فبكى الحصنى وقام فقبَّلَ

---

(١) شارف بلده : علاه .

(٢) الروعة : الفزعة .

رأسَهُ وضمّه عبد الله وأدناه ثم قال له : أمّا فلا بدّ من عتاب يا أخى ، جعلنى الله فداك ، قلت شعراً فى قومى أفخر بهم لم أطعن فيه على حسبك ولا ادّعيت فضلاً عليك ، وفخرت بقتل رجل هو وإن كان من قومك فهم القوم الذين ثأرك عندهم فكان يسعك السكوت أو إن لم تسكت لا تغرق ولا تسرف فقال :

أيها الأمير قد عفوت فاجعل العفو الذى لا يخلطه تثريب (١) ولا يكدّر صفوه تأنيب . قال . قد فعلت ، فقم بنا ندخل إلى منزلك حتى نوجب عليك حقاً بالضيافة ، فقام مسروراً فأدخلنا فأتى بطعام كان قد أعدّه فأكلنا وجلسنا نشرب فى مستشرف له ، وأقبل الجيش فأمرنى عبدالله أن أتلقّاهم فأرحلهم ولا ينزل أحد منهم إلا فى المنزل وهو على ثلاثة فراسخ ، ثم دعا بدواة فكتب له بتسويغه (٢) خراجه ثلاث سنين وقال له : إن نشطت لنا فالحق بنا وإلا فأقم بمكانك فقال : فأنا أتجهّزُ وألحق بالأمير ففعل فلحق بنا بمصر ، ولم يزل مع عبدالله لا يفارقه حتى رحل إلى العراق فودّعه وأقام ببلده . (٣)

تطفل إسحق الموصلى

نشهد فى هذه القطعة ، وفى القطعة التى تليها ، كما شهدنا فى القطع السابقة ، براعة أبى الفرج فى القصص والرواية ، فالعرض خفيف الظل ، والعقدة مشوقة والخاتمة لا تكشف سترها إلا فى نهاية المطاف ، والأسلوب رائع يمالك على القراء ألبابهم .

أخبرنا محمد بن مزيد قال : حدّثنا حماد بن إسحق عن أبيه أنه حدّثه قال : غدوت يوماً وأنا ضَجِرٌ من ملازمة دار الخلافة والخدمة فيها ، فخرجتُ وركبتُ

(١) التثريب : اللوم والتعيير بالذنب .

(٢) التسويغ : التجويز .

(٣) « الأغانى » ج ١١ ص ١٢ – ١٣ .

بُكْرَةً وعزمتُ على أن أطوفَ الصحراء وأتفرج ، فقلت لغلمانى إن جاء رسولُ الخليفة أو غيره فعرّفوه أنِّى بكَّرْتُ فى بعض مهمَّاتى ، وأنكم لاتعرفون أين توجّهت ومضيتُ وطفت ما بدا لى ، ثم عدت وقد حَمِيَ النهار ، فوقفت فى الشارع المعروف بالمحرم ، فى فناء ثخين الظل وجَناحٍ رَحْبٍ على الطريق لأستريح ، فلم ألبث أن جاء خادم يقود حماراً فارهاً عليه جارية راكبة ، تحتها منديل دبيق ، وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية بعده ، ورأيتُ لها قواماً حسناً وطَرفاً فاتراً وشمائلَ حسنة فَخَرَصْتُ[1] عليها أنها مغنّية ، فدخلت الدار التى كنت واقفاً عليها ، ثم لم ألبث أن جاء رجلان شابان جميلان فاستأذنا فأذن لهما ، فنزلا ونزلتُ معهما ودخلت ، فظنَّا أن صاحب الدار دعانى ، وظن صاحب الدار أنى معهما، فجلسنا وأُتِىَ بالطعام فأكلنا وبالشراب فوضع ، وخرجت الجارية وفى يدها عود فغنَّت وشربنا ، وقمتُ قومةً . وسأل صاحب المنزل الرجلين عنِّى فأخبراه أنهما لايعرفانى ، فقال : هذا طفيلى ، ولكنه ظريف ، فأجملوا عشرته ؛ وجئت فجلست وغنَّت الجارية فى لحن لى :

ذكرتك أن مرّت بنا أُمُّ شادنٍ   أمام المطايا تشرئبُّ وتسنحُ
من المؤلفاتِ الرّملَ أدماء حرّة   شعاعُ الضحى فى متنها يتوضَّحُ

فأدته أداءً صالحاً وشربت ثم غنَّت أصواتاً شتى ، وغنَّت فى أضعافها من صنعتى :

الطلولُ الدَّوارسُ   فارقتْهـا الأوانسُ
أوحشتْ بعد أهلِها   فهى قفرٌ بسابسُ

---

(١) خرصت : حدست وقلت بالظن .

فكان أمرها فيه أصلح منه فى الأول ، ثم غنّت أصواتاً من القديم والحديث وغنّت فى أثنائها من صنعتى :

قل لمن صدّ عاتبا ونأى عنك جانبا
قد بلغت الذى أرد ت َوإن كنت لاعبا

فكان أصلح ما غنّته ، فاستعدته منها لأصححه لها ، فأقبل علىّ رجلٌ من الرجلين وقال : ما رأيت طفيلياً أصفق وجهاً منك ! لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت ، وهذا غاية المثل : طفيلىٌ مقترِح . فأطرقت ولم أجبه ، وجعل صاحبه يكفه عنّى فلا يكفّ . ثم قاموا للصلاة وتأخرت قليلا فأخذت عود الجارية ثم شددت طبقته وأصلحته إصلاحاً محكماً وعدت إلى موضعى فصليت وعادوا . ثم أخذ ذلك الرجل فى عربدته علىّ وأنا صامت ، ثم أخذت الجارية العود فجسَّته وأنكرت حاله وقالت : مَنْ مَسَّ عودى ؟ قالوا : ما مسَّه أحد ، قالت : بلى والله! لقد مسَّه حاذق متقدم وشدّ طبقته وأصلحه إصلاح متمكن من صناعته ، فقلت لها : أنا أصلحته . قالت : فبالله خذه واضرب به ، فأَخذته وضربت به مبدأ صحيحاً ظريفاً عجيباً صعباً فيه نقرات محركة ، فما بقى أحد منهم إلاَّ وثب وجلس بين يدى ثم قالوا : بالله يا سيدنا أتغنِّى ؟ فقلت : نعم ، وأعرفكم نفسى ، أنا إسحق ابن إبراهيم الموصلى ، ووالله إنى لأتيهُ على الخليفة إذا كلمنى ، وأنتم تسمعوننى ما أكره منذ اليوم لأنى تملَّحت معكم ، فوالله لا نطقتُ بحرف ولا جلست معكم حتى تخرجوا هذا المعربد المقيت الغثّ ، فقال له صاحبه : من هذا حذرت عليك فأخذ يعتذر فقلت : والله لا نطقت بحرف ولا جلست معكم حتى يخرج ، فأخذوا بيده فأَخرجوه وعادوا ، فبدأتُ وغنَّيت الأصوات التى غنَّتها الجارية من صنعتى فقال لى الرجل : هل لك فى خصلة ؟ قلت : ما هى ؟ قال : تقيم عندى شهراً

والجارية والحمار لك مع ما عليها من حلى ، قلت : أفعل . فأقمت عنده ثلاثين يومًا لا يدرى أحد أين أنا ، والمأمون يطلبنى فى كل موضع فلا يعرف لى خبراً . فلما كان بعد ثلاثين يومًا أسلم إلىّ الجارية والحمار والخادم ، فجئت بذلك إلى منزلى ، وركبت إلى المأمون من وقتى ، فلما رآنى قال : إسحق ، ويحك ! أين أنت فأخبرته بخبرى ، فقال : علىّ بالرجل الساعة ، فدللتهم على بيته ، فأُحضر ، فسأله المأمون عن القصة فأخبره ، فقال له : أنتَ رجلٌ ذو مروءة ، وسبيلك أن تعاون عليها ، وأمر له بمائة ألف درهم ، وقال : لا تعاشرنَّ ذلك المعربد النذل البتة ، وأمر لى بخمسين ألف درهم ، وقال : أحضرنى الجارية فأحضرتها فغنَّته فقال لى : قد جعلت لها نوبة فى كل يوم ثلاثاء تغنِّينى وراء الستارة مع الجوارى ، وأمر لها بخمسين ألف درهم ، فربحتُ والله بتلك الركبة وأربحتُ[1] .

دحمان والجارية والوليد

(أخبرنى) وكيع عن أبى أيوب المدينى إجازةً عن أبى محمد العامرى الأويسى قال : كان دحمان جمّالاً يكرى إلى المواضع ويتجر ، وكانت له مروءة . فبينا هو ذات يوم قد أكرى جماله وأخذ ماله إذ سمع رنَّة ، فقام واتبع الصوت ، فإذا جاريةٌ قد خرجت تبكى فقال لها : أمملوكةٌ أنت ؟ قالت : نعم . فقال : لمن ؟ قالت : لامرأةٍ من قريش ، وسمَّتها له . فقال : أتبيعك ؟ قالت : نعم . ودخلت إلى مولاتها فقالت : هذا إنسانٌ يشترينى . فقالت : ائذنى له ، فدخل فسامها حتى استقرّ أمر الثمن بينهما على مائتى دينار فنقدها إيَّاها وانصرف بالجارية . قال دحمان فأقامت عندى مدة أطرح عليها و يطرح عليها معبد والأبجر ونظراؤهما من المغنِّين ،

---

(١) « الأغانى » ج ٥ ص ١١٩ — ١٢٠ .

ثم خرجت بها بعد ذلك إلى الشام . وقد حذقت وكنت لا أزال إذا نزلنا أُنزل الأكرياء [١] ناحية وأنزل معتزلاً بها ناحية فى محمل ، وأطرح على المحمل من أعبية الجمّالين ، وأجلس أنا وهى تحت ظلها ، فأخرج شيئاً فنأكله ، ونضع ركوة [٢] لنا فيها شراب فنشرب وتتغنّى حتى نرحل . ولم نزل كذلك حتى قربنا من الشام . فبينا أنا ذات يوم نازلٌ وأنا ألقى عليها لحنى :

لو رَدَّ ذو شفقٍ حِمَامَ منيَّةٍ　　　لرددتُ من عبد العزيز حِماما

صلّى عليك الله من مستودعٍ　　　جاورت رَمْساً فى القبور وهاما [٣]

(قال) فرددته عليها حتى أخذته واندفعت تغنِّيه ، فإذا أنا براكب قد طلع فسلم علينا فرددنا عليه السلام فقال : أتأذنوا [٤] لى أن أنزل تحت ظلِّكم هذا ساعةً ! قلنا : نعم . فنزل وعرضتُ عليه طعامنا وشرابنا فأجاب ، فقدمنا إليه السفرة فأكل وشرب معنا واستعاد الصوت مراراً ثم قال للجارية : أتغنِّين لدحمان شيئاً . قالت نعم . قال فغنِّينى صوتاً من صنعته ، فغنَّته أصواتاً من صنعتى وغمزتها أن لا تعرّفه أنى دحمان ، فطرب وامتلأ سروراً وشرب أقداحاً والجاريةُ تُغنِّيه حتى قرب وقت الرحيل ، فأقبل علىَّ وقال ، أتبيعنى هذه الجارية فقلت: نعم . قال : بكم ؟ قلت كالعابث : بعشرة آلاف دينار . قال : قد أخذتها بها ، فهلمَّ دواةً وقرطاساً ، فجئته بذلك فكتب : ادفع إلى حامل كتابى هذا حين تقرأه عشرة آلاف دينار واستوصِ به خيراً وأعلمنى بمكانه . وختم الكتاب ودفعه إلىَّ ثم قال : أتدفع إلىَّ الجارية أم تمضى بها معك حتى تقبض مالك .

---

(١) الأكرياء : جمع كرى وهو المستأجر .

(٢) الركوة : إناء للماء .

(٣) الهام : جمع هامة وهو الرأس وهنا اسم لطائر يألف المقابر . والشعر لكثير يرثى عبد العزيز بن مروان . وزعم بعض الرواة أن هذا الشعر لعبد الصمد بن على الهشامى يرثى ابناً له .

(٤) هكذا فى الأصل .

فقلت بل أدفعها إليك . فحملها وقال : إذا جئت النجراء[١] فسل عن فلان وادفع كتابى هذا إليه واقبض منه مالك . ثم انصرف بالجارية .

(قال) ومضيت فلما وردت النجراء سألت عن اسم الرجل فدللت عليه فإذا داره دار ملك ، فدخلت عليه ودفعت إليه الكتاب فقبَّله ووضعه على عينيه ، ودعا بعشرة آلاف دينار فدفعها إلىَّ وقال : هذا كتاب أمير المؤمنين ، وقال لى : اجلس حتى أعلم أمير المؤمنين بك ، فقلت له حيث كنت فأنا عبدك و بين يديك وقد كان أمر لى بأَنْزال[٢] وكان بخيلاً فاغتنم ذلك فارتحلت وقد كنت أُصبت بجملين وكانت عدة أجمالى خمسة عشر فصارت ثلاثة عشر .

(قال) وسأل عنِّى الوليد فلم يدْر القهرمانُ أين يطلبنى فقال له الوليد : عدَّة جماله خمسة عشر جملاً فاردده إلىَّ فلم أُوجد لأنه لم يكن فى الرفقة من معه خمسةَ عشرَ جملاً ، ولم يعرف اسمى فيسأل عنى .

(قال) وأقامت الجارية عنده شهراً لا يسأل عنها ، ثم دعاها بعد أن استبرئت وأصلح من شأنها ، فظلَّ معها يومه حتى إذا كان فى آخر نهاره قال لها : غنِّينى لدحمان ، فغنَّت وقال لها : زيدينى ، فزادت. ثم أقبلت عليه فقالت : يا أميرَ المؤمنين أوَ ما سمعت غناء دحمان منه ؟ قال : لا ، قالت : بلى والله ، قال : أقول لك لا ، فتقولين: بلى والله ، فقالت : بلى والله، لقد سمعتَهُ ، قال : وما ذاك ؟ ويحك ! قالت : إن الرجل الذى اشتريتنى منه هو دحمان ، قال : أوَ ذلك هو ؟ قالت : نعم هو هو ، قال : فكيف لم أعلم ؟ قالت غمزنى بأن لا أعلمك . فأمر فكتب إلى عامل المدينة بأن يحمل إليه دحمان فحمل فلم يزل عنده أسيراً[٣]

---

(١) وقد تكون البخراء .

(٢) الأنزال : جمع نزل وهو العطاء .

(٣) وقد تكون أثيراً أى معززاً مكرماً . « الأغانى » ج ٥ ص ١٣٥ - ١٣٦ .

المراجع

الأغانى　لأبى الفرج الأصبهانى . الأجزاء : ١ و٢ و٥ – ٩ و١١ و١٢ و١٤ – ٢١ (الطبعة القديمة) .

دراسة الأغانى　للمؤلف .

مقاتل الطالبيين　لأبى الفرج الأصبهانى .

معجم الأدباء　لياقوت . الجزء ١٣

لفيف من كتب الأدب والتاريخ

الفهرست

الفصل الأول

عصر أبي الفرج الأصبهاني

صفحة

الفصل الثاني

أبو الفرج الأصبهاني في عصره

الفصل الثالث

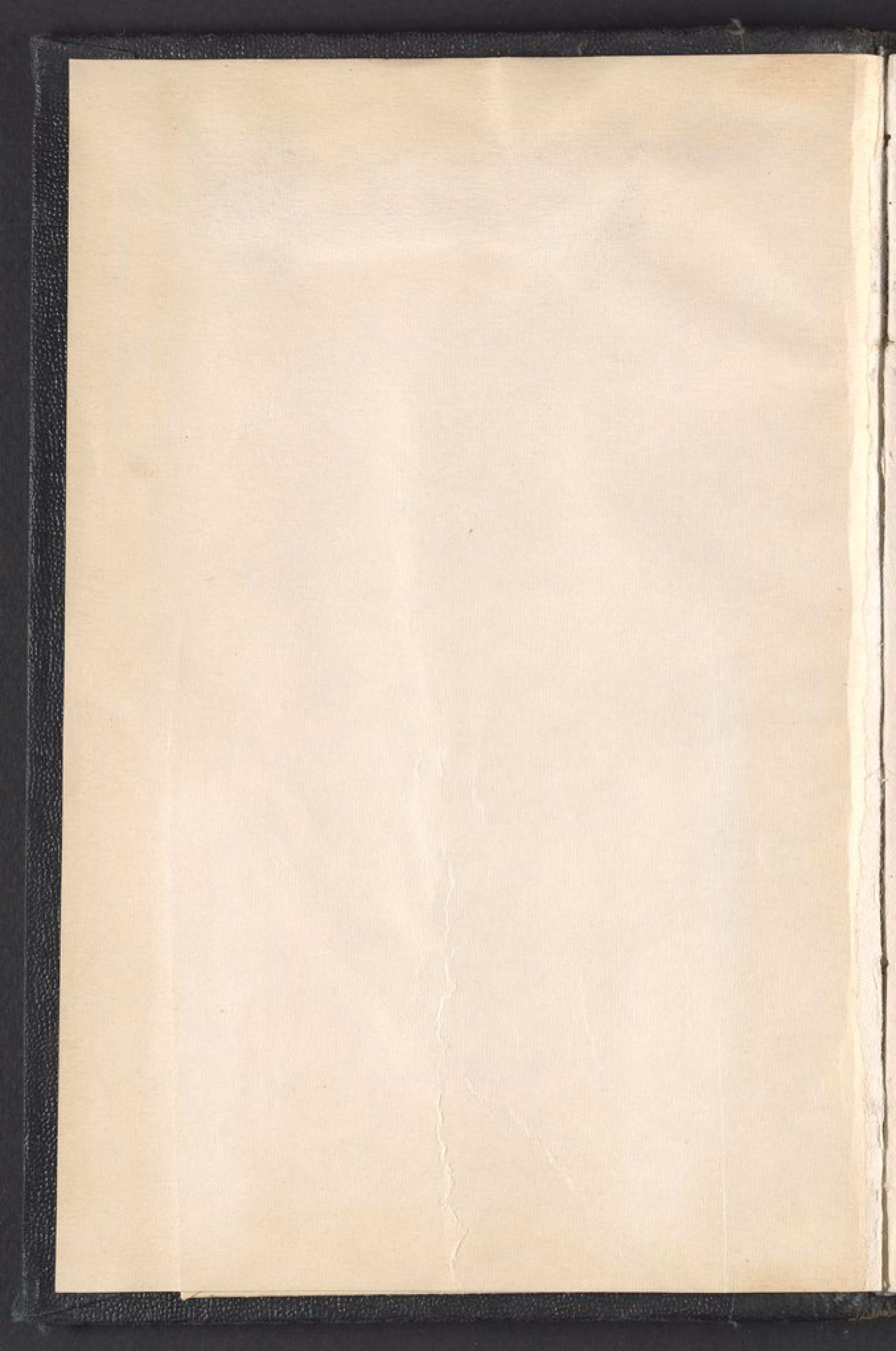
جوانب أبي الفرج الأصبهاني

الفصل الرابع

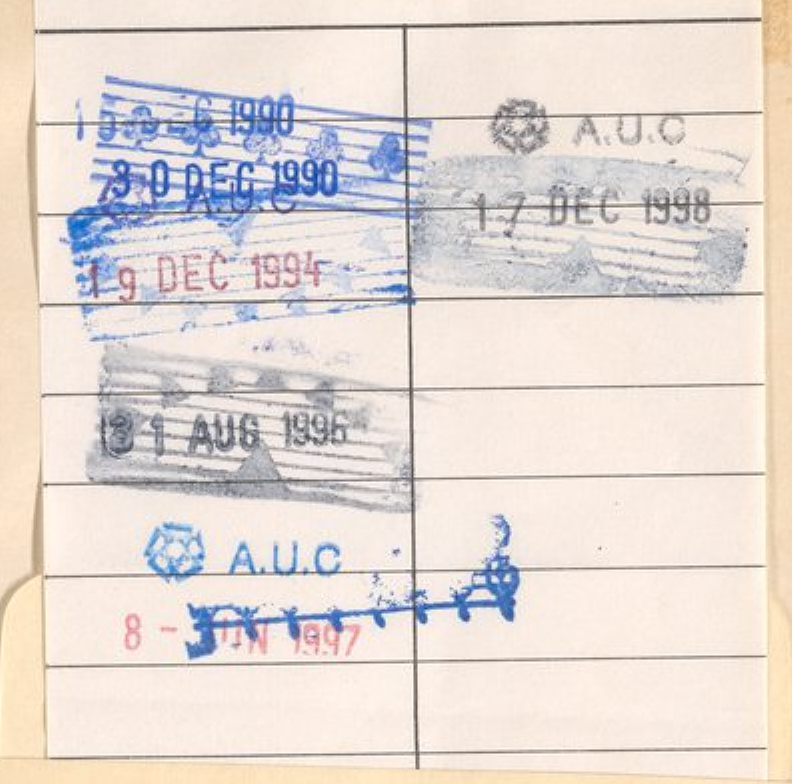
منتخبات من آثار أبى الفرج الأصبهانى

صفحة

تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف
فى شهر فبراير (شباط) سنة ١٩٥٥






15 DEC 1990
30 DEC 1990
A.U.C
19 DEC 1994
A.U.C
17 DEC 1998
31 AUG 1996
A.U.C
8 - JUN 1997

